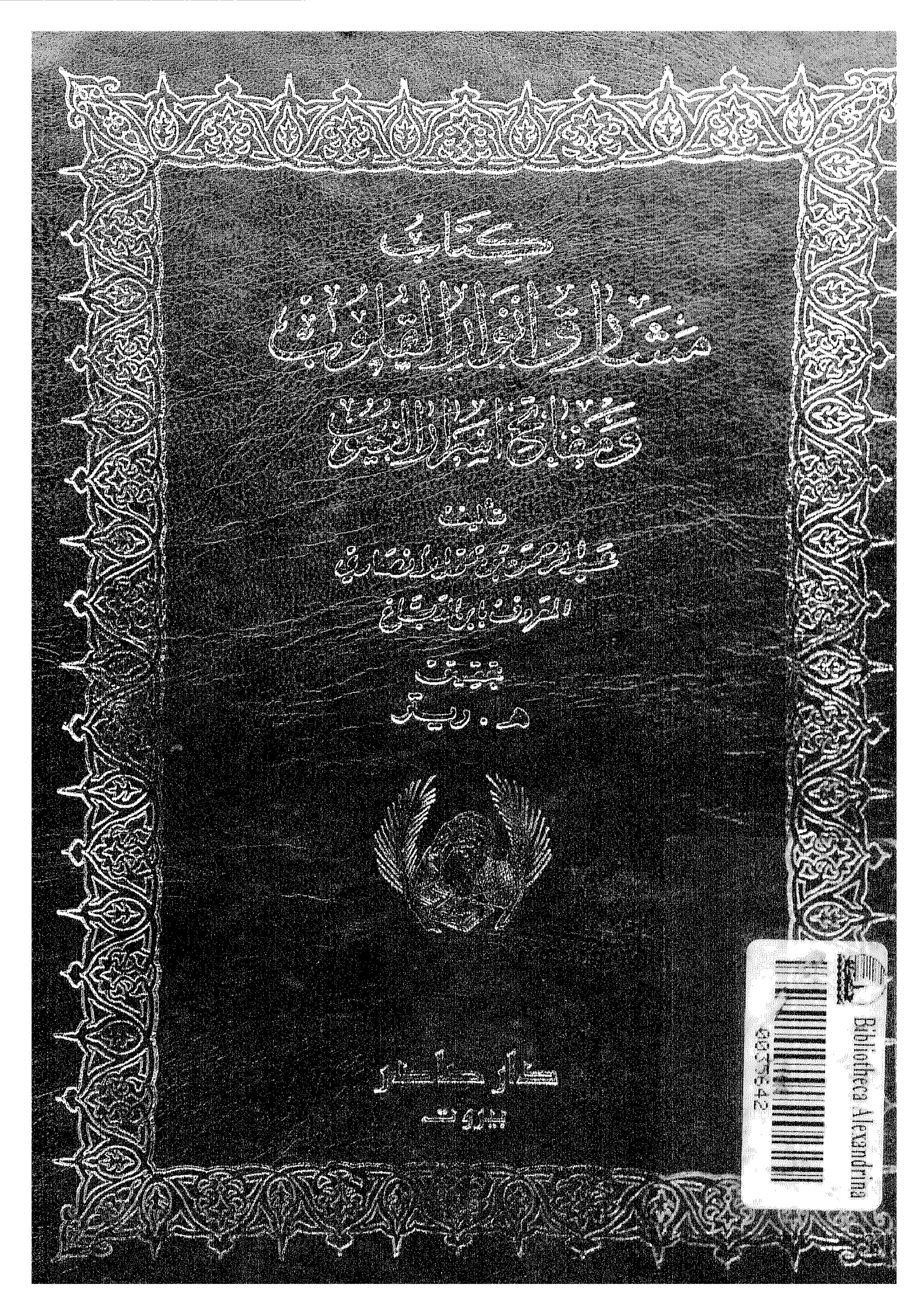


كتاب

مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب

تأليف

عبد الرحمن بن محمد الأنصاري
المعروف بابن الدباغ

تحقيق

ه. ريتر

دار صادر
بيروت



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





مشارق أنوار القلوب



كتاب
مشارق أنوار القلوب
ومفاتح أسرار الغيوب

تأليف

عبد الرحمن بن محمد الأنصاري
المعروف بابن الدبّاغ

تحقيق

ه . ريتر

دار صادر
بيروت



مقدمة

من المعلوم أن العشق وأحوال العاشقين موضوع يعم آداب كل الأمم في جميع الأجيال وما يزال الناس يتحدثون عنه نثراً ونظماً منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، ولولاه لعدمنا نصف الآداب العالمية أو أكثر . ومع هذا فإن الأبحاث النظرية في ماهية العشق وسببه والممدوح والمذموم منه وغير ذلك قليلة نسبياً في آداب العالم ، وقد كان للعرب حظ عظيم من هذا النوع من التأليف وإن كان الذي نشر منه بوجه مرضيّ أو ترجم إلى اللغات الأوروبية قليلا. ومؤلفات العرب في العشق حسنة جيدة يدلّ على حسنها وجودتها أن تلك التي تُرجمت منها ككتاب طوق الحمامة لابن حزم أو الأبواب المتعلقة بالمحبة والعشق من إحياء علوم الدين وكيمياء السعادة للغزالي لقيت رغبة عظيمة عند الطبقة المثقفة في أوروبا وما تزال مطلوبة مقروءة .

ومعلوم أيضاً أن بحث العشق يرد كثيراً في كتب الأدب العربي العامة ولكن يوجد أيضاً كتب ورسائل أُفردت لهذا الموضوع وهي تنقسم بوجه عام إلى نوعين : نوع اعتبر مؤلفوها المحبة والعشق ظاهرة إنسانية لا تعدو حدود الأحوال البشرية المشهودة من أهلهما من الحيرة عند مشاهدة جمال مخلوق، ومن تعلق القلب بالمعشوق والألم عند هجره أو فراقه والشوق إليه إذا غاب وتتييم العشق صاحبه وابتلائه بالرقباء والوشاة إلى غلوّ في العشق الذي يؤدي بصاحبه إلى الموت أو إلى قتله نفسه لشدة الغرام واليأس من الوصال أو إلى الجنون . والكتب التي من هذا النوع لا تكاد تخلو من حكايات غريبة عن

المحبين والعاشقين كما حكوا عن بني عذرة ومجنون ليلى وغيرهم .

والنوع الثاني من الكتب المؤلفة في العشق هو ما ألّفه أهل التصوّف الذين يعتبرون محبة الجمال المخلوق مرحلة أولية في سلوك السالك يجب أن يرتقي منها إلى محبة خالق الجمال ، ويسمون هذه المحبة محبة حقيقية أو عشقاً حقيقياً وذلك الآخر عشقاً مجازياً ، ويستعملون عند البحث في المحبة والعشق اصطلاحات الصوفية من الشوق والسكر والوجد والفناء في المحبوب والاتحاد به ، ويتحدثون عن مناسبة خفية بين العاشق والمعشوق وربما ادعوا أن المخلوق الجميل مظهر للجمال المطلق الإلهي الذي هو عندهم صفة من صفات البارىء . ويبدو في بعض كتبهم تأثير فلسفة أفلاطون فإنّه أول من تكلّم عن الجمال المطلق الذي يتجلى في جمال الانسان الجميل ، وبلغ ببعض أصحاب هذه النظرية أن ادعوا أن كل عاشق جمال مخلوق إنما يعشق الجمال الإلهي المتجلي فيه وهو لا يشعر من يحبّ في الحقيقة . ولهم أقوال غريبة في حضور المعشوق في قلب العاشق حتى انّه يؤثر حضور المعشوق في القلب يعني في الخيال على حضور شخصه المحسوس كما قيل إن مجنون بني عامر لما حضرته ليلى لم يسرّه حضورها بل قال لها : « إليك عني حبّك شغلني عنك » ، ومنهم من ادعى أن اتحاده بمعشوقه بلغ به حتى صار نفس المعشوق ، كما قال الحلاج « أنا من أهوى » . ولا شكّ أن الصوفية اطلعوا على أسرار لقلب الانسان لم يطّلع عليها غيرهم وكشفوا عن حالات روحانية بقيت مستورة على سواهم فنسلّم لهم بحالاتهم ومقاماتهم وإن صعب علينا فهمها وتحققها .

أما الكتب المؤلفة في العشق[1] من النوع الأول فأهمها هذه :

١ — أول تأليف وصل إلينا من هذا النوع رسالة للجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٠ هـ) اسمها « رسالة العشق والنساء » . (بروكلمان . الذيل

[1] انظر مقالي في مجلة Der Islam ٢١/١٩٣٣/٨٤-١٠٩

(٢٤٣/١

٢ — كتاب « الزهرة » للفقيه الظاهري أبي بكر محمد بن داود (المتوفى سنة ٢٩٧ هـ) شهيد العشق وراوي الحديث المشهور « من عشق وكتم وعف ومات فهو من الشهداء يوم القيامة » وهذا الكتاب يحتوي على مقدمة في العشق وعلى شعر كثير ؛ وطبع منه القسم الأول في سنة ١٩٣٢ ولم يطبع إلى الآن القسم الثاني الذي كشف عن نسخة منه في بعض مكتبات إيطاليا (بروكلمان . الذيل ٢٤٩/١) .

٣ — كتاب « اعتلال القلوب » لأبي بكر محمد بن جعفر السامري الخرائطي (المتوفى سنة ٣٢٧ هـ) توجد منه نسخة غير كاملة في دار الكتب تاريخها ٨٤٢ هـ . ونسخة في مكتبة غوطا قديمة (كتبت قبل سنة ٤٨٧ هـ) غير كاملة أيضاً . ونسخة كاملة مكتوبة في سنة ١٠٣٥ في مكتبة أولو جامع في بروسه (تصوف ٣) (بروكلمان . الذيل ٢٥٠/١) .

٤ — كتاب « مصارع العشاق » لأبي محمد جعفر بن أحمد السراج القارىء المتوفى سنة ٥٠٠ هـ أو بعدها بقليل ونسخته الوحيدة في مكتبة رئيس الكتاب مصطفى (رقم ٩٠٦) وعنها طبع الكتاب في مطبعة الجوائب باستانبول سنة ١٣٠٢ ثم طبع مرة ثانية في بيروت سنة ١٩٥٨ (بروكلمان . الذيل ٥٩٤/١) .

٥ — كتاب « طوق الحمامة » المشهور لابن حزم الأندلسي (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) طبع في ليدن سنة ١٩١٤ وترجم مراراً إلى اللغات الأوروبية (بروكلمان . الذيل ٦٩٤/١) .

٦ — لا نعدم من يذم الهواء ويحذر الناس عنه (وإن قلت فائدة ذلك) ومنهم أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ الحنبلي المشهور (المتوفى سنة ٥٩٧) واسم كتابه «ذم الهواء» وهو كتاب ضخم

غني ومنه نسخ في باريس (رقم ١٢٩٦) وبرلين (آلوردت ٨٣٦٢) وشهيد علي باشا (رقم ١٤٨٠) وكوبرولو (رقم ٧٢٢) وفاتح (رقم ٢٦٢٠) وقراجلبي زاده حسام الدين (رقم ٣٠٣ — ٣٠٤) ولم يطبع إلى الآن على أهميته (بروكلمان . الذيل ١/٩١٩) .

٧ — كتاب « روضة العاشق ونزهة الوامق » لأحمد بن سليمان بن حميد الكسائي الشافعي كتبه للملك الأشرف أبي المظفر موسى بن سيف الدين أبي بكر (المتوفى سنة ٦٣٥) ، توجد منه نسخة في مكتبة السلطان أحمد الثالث في طوب قابي سراي باستانبول (رقم ٢٣٧٢) (بروكلمان . الذيل ١/٥٩٩) .

٨ — كتاب « منازل الأحباب ومنازه الألباب » لشهاب الدين أبي الثناء محمود بن فهد الحلبي (المتوفى سنة ٧٢٥) توجد منه نسخ كثيرة . (بروكلمان . الذيل ٢/٤٣) . وأهم نسخها نسخة أيا صوفيا (رقم ٤٣٠٧) التي قرئت على المؤلف في منزله بالقاهرة في سنة ٧١٤ هـ .

٩ — كتاب « روضة المحبين » لابن قيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١ هـ.) طبع في دمشق سنة ١٣٤٩ (بروكلمان . الذيل ٢/١٢٨)

١٠ — كتاب « الواضح المبين في ذكر من استشهد من المحبين » للحافظ علاء الدين أبي عبد الله مغلطاي (المتوفى سنة ٧٦٢ هـ) ألّفه بين سنتي ٧٤٠ — ٧٤١ هـ . وهو معجم شهداء العشق (وهو فن عجيب) . منه نسخة في مكتبة فاتح (رقم ٤١٤٣) كتب في حياة المصنف في سنة ٧٤٢ هـ ، وأخرى في مكتبة شهيد علي باشا رقم ٢١٦٠ (٨٧٣ هـ) . وطبع القسم الأول منه على وجه غير مرضي بالهند (بروكلمان . الذيل ٢/٤٨) .

١١ — « ديوان الصبابة » لابن أبي حجلة الحنبلي (المتوفى سنة ٧٧٦) (بروكلمان . الذيل ٢/٦٠٥) .

١٢ – كتاب « أسواق الأشواق » لابراهيم بن عمر البقاعي (المتوفى سنة ٨٨٥) وهو توسيع لكتاب مصارع العشاق للسراج المذكور تحت رقم ٤ . وهو كتاب ضخم توجد منه نسخة في مكتبة رئيس الكتّاب مصطفى (رقم ٧٤٥) وأخرى في مكتبة بشير آغا (رقم ٥٥٢) ولم يطبع إلى الآن (بروكلمان . الذيل ١/٥٩٤) .

١٣ – كتاب « تزيين الأسواق بتفصيل (بترتيب) أشواق العشاق » لداود الانطاكي المتطبب (المتوفى سنة ١٠٠٨ ﻫ) وهو تلخيص كتاب أسواق الأشواق (بروكلمان . الذيل ١/٥٩٤ و ٢/٤٩٢) .

النوع الثاني كتب المتصوفين في المحبة والعشق

١ – أقدم كتب المتصوفين في العشق كتاب « عطف الألف المألوف على اللام المعطوف » لأبي الحسن علي بن محمد الديلمي تلميذ أبي عبد الله محمد بن خفيف الصوفي المشهور المتوفى سنة ٣٧١ ﻫ . وهو مؤلف كتاب سيرة ابن خفيف (بالفارسية) الذي طبع بأنقرة ، ورسالة « العقيدة الصحيحة » . وكتاب عطف الألف المعطوف هامّ لأنّه يحتوي على فصل من مكالمة لأرسطاطاليس في العشق ضاع أصلها اليوناني (وللاستاذ ر . فالتسر بحث في هذا الفصل لا يحضرني عنوانه) ، والنسخة الوحيدة من هذا الكتاب توجد في مكتبة توبينغن في ألمانيا وفيها من السقم والغلط شيء عظيم وحاولت تحقيقه بمعاونة الدكتور إحسان عباس على أن فيه خرافات ينفر منها العقل السليم (بروكلمان . الذيل ١/٣٥٩) .

٢ – رسالة « جمحة النها عن لمحة المها » لفخر الدين أبي عبد الله محمد ابن ابراهيم بن طاهر الخبري الفيروزابادي (المتوفى سنة ٦٤٢ ﻫ)

(انظر ميزان الاعتدال للذهبي تحت اسمه) وفرغ المؤلف من تأليفها في سنة ٦٠٧ ﻫ . وتوجد هذه الرسالة في مجموعة رسائل في مكتبة ولي الدين في استانبول كتبت في سنتي ٨٠٦ – ٨٠٧ ﻫ (ورقة ٤٠ آ –٥٣آ). (بروكلمان . الذيل ١/٧٨٧) .

٣ — رسالة « نسل الأسرار وسر الاسكار » للمؤلف نفسه في المجموعة عينها (ورقة ٥٤ آ – ٩٣ ب) .

٤ — « مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب » لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري القيرواني المعروف بابن الدبّاغ المتوفى سنة ٦٩٦ ﻫ وأصله في المجموعة عينها (ورقة ١ – ٣٩ آ) فرغ من مقابلتها بأصلها في ١٧ ذي القعدة ٨٠٦ ﻫ (انظر اللوحتين) . والمؤلف مؤرّخ القيروان وكتب كتاباً في تراجم أهلها هو أساس كتاب « معالم الايمان في معرفة أهل القيروان » للقاسم بن عيسى الناجي المتوفى سنة ٨٣٧ ﻫ . ولم أقف على هذا الكتاب ولا على مظان ترجمة ابن الدبّاغ . (بروكلمان . الذيل ١/٨١٢ ، ٢/٣٣٧) .

وهذه الرسالة هي التي ننشرها هنا وأظنها مثالا جيدا لأقوال المتصوفين في العشق المتأثرين بالفلسفة الافلاطونية ولا أتمكن هنا من تحليل أقوال المؤلف بالتفصيل ولا من البحث عن مصادرها المحتملة .

ولا يفوتني قبل ختم الكلام أن أشكر الاستاذين محمد يوسف نجم وإحسان عباس اللذين ساعداني عند تحقيق المتن وطبعه شكرا خالصا .

ﻫ. ريتر

الورقة الأولى من المخطوطة

الورقة الأخيرة من المخطوطة

كتاب
مشارق أنوار القلوب
ومفاتح أسرار الغيوب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه الأجلّ الأوحد العالم العلَم الصالح الورع الصدر العلّامة أبو زيد عبد الرحمن ابن الشيخ الصالح الزاهد الورع أبي عبد الله محمد الأنصاري رضي الله عنه ونفعه ونفع به بمنّه وكرمه : ٣

الحمد لله الذي أطلع شمس الجمال القدسي بمطالع آفاق القلوب ، وأشرق أنوار العوالم الروحانية على صفحات الصور البديعة الإنسانية من وراء حجب الغيوب ، وأظهر محاسن وجوه الحقائق السالبة للعقول بجمالها ٦ الرائق فوق أزرّة الجيوب ، وجعل بين الأنوار العلوية والصور السفلية ارتباطا ربّانيا أجراه بمشيئته على نظام مُتّفقٍ وأسلوب ، وتناسباً إلاهيّا تحكيه العقول المتيقّظة مُناسبَة المحب والمحبوب ، والصلاة على سيدنا محمد الذي ٩ حاز من شرف المقامات النبويّة أجلّ موهوب ، وأشرف مطلوب ، وسلم كثيرا .

(٠/٢) **أما بعد** – بلّغك الله منازل أهل التحقيق ، ولا عدَل بك عن ١٢ سَواء الطريق – فقد سألتني أن أكشف لك عن حقيقة السلوك إلى جناب الأحباب ، والوصول إلى حضرة الجمال الإلهي التي تحوم عليها القلوب والألباب ، ومشاهدة النور الأعلى ، ومحاسن صور العالم الأرفع الأسنى ، ١٥ والوقوف بالوادي المقدّس طُوًى ، فأجبتك إلى ذلك بقدر ما تقتضيه الحال

٣/٠

ويساعد عليه الخاطر المقسَّم ويعطيه المقال ، بعد أن قرعتُ أبواب الغيوب
بيد الضراعة ، وسألت الإعانة من الفتّاح العليم بلسان الافتقار جهد الاستطاعة ،
٣ وطلبت منه الامداد بالتوفيق ، والهداية إلى الحقّ من أقرب طريق ، فذكرت
طرفا من ذلك على معنى الايماء والتلويح ، دون الاطناب في الكشف عنه
والتصريح ، وإنما قصدتُ بما إليه التشويق ، لمنازل أهل التحقيق . ورأيتُ أنّ
٦ كتم هذا القدر عن أربابه ظُلْم . كما أنّ بذله لغير أهله حرامٌ وإثم ، وإن
كان محفوظا بالغيرة الإلهية عن غير أربابه . ومحروسا بالحماية الربّانية إلا
من أصحابه (من الكامل) :

٩ لِمَ لا أُعرّضُ باسم عزّةَ إنّها أخذتْ عليّ مواثقا وعهودا
لو يسمعون كما سمعتُ كلامها خرّوا لعزّةَ رُكّعا وسُجودا

(٠/٣) والمغزى الذي نُورده في هذا الكتاب ينحصر في مقدمة وعشرة
١٢ أبواب .

الباب الأول في الطرق التي بها تصل النفس إلى المحبة الحقيقية .
الباب الثاني في ذكر المحبة ومعانيها واختلاف عبارة الناس فيها .
١٥ الباب الثالث في أقسام المحبة بحسب جنسها .
الباب الرابع في حقيقة الكمال والجمال على ما يعطيه المقال .
الباب الخامس في محبة المناسبة المعنوية الخفية عن أذهان البرية .
١٨ الباب السادس في أقسام المحبين وأذواق السالكين .

٩–١٠ البيتان لكثير عزة إلا أن المصراع الأول من البيت الأول في الديوان هكذا :
لا تغدرن بوصل عزة بعدما
ارجع إلى شرح ديوان كثير نشر هنري پريس ، الجزائر ١٩٣٠ ج ١ ص ٦٤–٦٥
١١ والمغزى الذي : لم يبق من الكلمتين إلا والمغ... والبقية مقطوعة

٤/٠

الباب السابع في مقامات العارفين المشتاقين .

الباب الثامن في منازل الواصلين ومشاهدة أهل التمكين .

الباب التاسع في ذكر العشق على الاجمال وما يتصل بذلك من الأحوال . ٣

الباب العاشر في الفضائل التي تكتسبها النفس بطريق المحبة . وبالله نستعين وإياه نقصد فيما نشير إليه ونعتمده .

مقدّمة ٦

(٤/٠) **اعلم** أن مطلب ذوي العقول الكاملة ، والنفوس الفاضلة ، نَيْلُ السعادة القُصوى ، التي معناها الحياة الدائمة في الملإ الأعلى ، ومشاهدة أنوار حضرة قدس المولى ، والتلذّذ بمطالعة الجمال الإلهي الأسنى ، ومعاينةُ مطالع ٩ النور القدسي الأبهى ، وهذه السعادة لا تحصُل إلا لنفس زكيّة ، قد سبقت لها في الأول العناية الربانية ، بتيسيرها لسلوك الطرق العلمية والعملية ، المُفْضِيَات بها إلى المحبة الحقيقية ، والشوقِ إلى الأنوار الإلهية . وبحصول هذه السعادة ١٢ تحصل للنفوس العارفة من اللذّة والابتهاج ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وإذا تقرّر ما قلناه فيجب على كلّ ذي لبّ المبادرة إلى حصول هذا الأمر ١٥ الجليل ، وورود هذا المورد السلسبيل ، الذي لم يصل إليه من الناس إلا القليل ، بل أقلّ من القليل ، فإن هذه السعادة هي المطلوب من هذا الوجود ، وغاية لذّة العقول ، والمعنى الأشرف المقصود ، ولا يُدرَك بمجرّد الحواسّ الظاهرة ١٨

....

١١ المفضيات : في الأصل « المفضيان »

ولا بقُوَى الجسم الباطنة المركّبة فيه ، فإنها لا تُدرك إلا المحسوسات ولا
تلتذّ إلا بها ، ولذّاتُ المحسوسات بائنة منقطعة عن قريب وهي مع ذلك
٣ حجابٌ في الذهاب عن الله تعالى وعن العالم العلوي ، وإنّما تُدرِكُ هذه
السعادةَ وتلتذّ بها النفوسُ الفاضلة، ذوات الادراكات الكاملة، بما قرّرناه ،
فإنها من جنس العالم الأعلى وأنموذجٌ منه ، وقد خُلقت فيها أهلية الاتصال به ،
٦ ولكن لا يمكنهـا ذلك ما دامت عاشقة للذّات العـالم الأسفل مُقبلةً
بكليّتها عليه ، فإن ذلك يوجب إعراضها عن العالم العلوي ، إذ عشقُ هذه
الأجسام وشهواتها البهيمية صارفٌ عن اللذّات الملـكية الباقية في دار البقاء على
٩ نحو ما سبق في التقدير . وفي مثل ذلك قيل (من الكامل) :

حيرانُ في سِجن الحوادثِ مُوثَقٌ خِدنُ الصبابةِ في الحضيضِ الأوهدِ
نَسيِيَ المعارفَ واللطائفَ فانبرى يبغي الحياة من المواتِ الجَلْمَدِ

١٢ (٥/٠) **تنبيه** : وإنما سبق للنفس اللذّة بالمحسوسات قبل اللذّة بالأمور
الروحانية لتقدّم الحواسّ وقُوى الطبع البدني من أول النشء قبل اندراج
نور العقل وإشراقه على اللذّات الانسانية ، فلما كان الجسم أوّلَ منزل دبّرته
١٥ النفس أوجب ذلك لها محبّة الأجسام وشهواتها من أول الأمر ، وكلما طالت
ألفتُها لذلك قَوِيَ حبُّها للذّات الجسم وغلب عليها سلطان الوهم المضادّ لحكم
العقل، فنازعَ العقلَ أشدّ منازعة حتى صار كثير من النفوس لا يشعر أنّ
١٨ وراء لذّة الأجسام وشهواتها لذّةً لغلبة الوهم والخيال عليها ولذلك لا تشتاق
إلى عالمها لكونها لم تعرفه ولم تألفه ، وقبل الجسم لم يكن لها وجود أصلا ،
فإنها حادثة مع بدنها فلا يمكن صرفها عن عشق المحسوسات في الميل إلى
٢١ المألوفات إلا بعشقٍ عنيفٍ هو أشدّ من ذلك إلى معشوق أكمل وأتمّ لذّة عند
من عرفه من اللذّات المحسوسات لتتعلّق النفس بعشقه فيصرفها عن عشق
لذّات الجسم ولا يمكنّها من الميل إليها على ما سيأتي بيانه .

(٠/٦) **إشارة** : وإنما جعل الحقّ تعالى هبوط النفس إلى هذا العالم الأسفل على معنى الابتلاء لها إمّا لتحصيل الكمال بالمعرفة الموصلة إلى محبّة الله تعالى والقرب منه فتحوز بذلك السعادة الأبدية وإمّا لتكسب الأخلاق الرديّة ٣ وتنقاد للشهوات الطبيعية المُبعدة من الله تعالى .

(٠/٧) **واعلم** أن كمال النفس هو عين سعادتها كما أن عدم كمالها البتة هو نفس شقاوتها ، وإنما يكون كمالها ونقصانها في هذه الدار ما دامت مصاحبةً ٦ لبدنها ؛ فكمالها أن تصير بالرياضة بحيث تدرك المعارف الربانيّة بغير واسطة من العالم العلوي ، لا من خارجٍ بطريق الحواسّ ،وتنطبع بالفضائل من محبّة الحقّ ومعرفته ،والشوق إلى جمال حضرته ،فيصير لها ذلك خُلقا وعادة ونقصُها ٩ بضدّ ذلك ، وذلك بأن لا تعرف الحق ولا تحبّه ولا تشتاق إليه وتصير لها الرذائل خُلُقا ثابتا ، إذ خُلقَتْ مستعدّة للأمرين جميعا والبارىء تعالى ييسّر كلاً لما يريده منه من خيرٍ أو شرّ . ولا تتوهم أن النفس تستفيد بعد فراق ١٢ الجسد كمالا ولا تقدرُ على تحصيله ،وليس أيضا بين إدراكها للحقائق في الدنيا وإدراكها لذلك في الآخرة فرق ، بل هذا هو عين هذا إلا زيادةَ كشفٍ ووضوحٍ كما بين تصوّر ذات الشيء في الخيال وبين رؤيته بالبصر ، وكما أنّا ١٥ إذا قدّرنا إنسانا وُلِدَ أعمى إلا أنّه تامّ الفطرة جيّد الحدس وقد وُصفت له مدينته التي نشأ فيها وصفا كاملا شافيا ، وتواترَ وصفُها له عنده حتى كأنّه يشاهدها وحتى صار يصفها لغيره من العميان ويتصرف في سائر نواحيهـا ١٨ وطرقها بلا قائد،فإن هذا إذا رُزق البصر دفعةً واحدةً وشاهد تلك المدينة رآها على وفق ما كان منطبعا في خياله منها قبل مشاهدتها إلا أن الرؤية أكثر وضوحا وأكثر جلاء . وكذلك رؤية الشيء في غيم رقيق لا يمنع الرؤية على ٢١ وجه مّا ثم رؤيته بعدُ عند انقشاع ذلك الغيم . ولذلك نجدُ كثيرا من الناس يعشق الصورة الحسّية الانسانية بالسماع حتى يهيم بها ثم يهواها بعد ذلك فتكون

عنده على وفق الصورة المنطبعة في نفسه منها بالسماع . فهذا هو الفرق بين
إدراك العارف في الدنيا وإدراكه في الآخرة ، إذ لا عائق عن كمال الادراك
٣ واللذّة به في الدنيا إلا حُجُب الأجسام وتدبير ضروراتها ، فإذا ذهبت
علائقها من النفس وانصرفت عن تدبيرها بالموت كانت لذّة المعرفة أكمل
وأتمّ ، وقد تتفق لمن تجرّد في هذه الدار عن حبّ المحسوسات وعلائقها هذه
٦ المعرفة الكاملة ، ولهذا قال بعض العارفين : « لو كُشف الغطاء ما ازددت
إلاّ يقينا » . وإذا كانت المعرفة التي تحصل للعارف في الدنيا هي بعينها التي
توصلُه في الآخرة إلى رؤية الحق فمن لم يعرف الحق تعالى في الدنيا ويلتذّ
٩ بمعرفته ومحبّته لا يراه في الآخرة ولا يلتذّ بمشاهدته إذ يموت المرء على ما
عاش عليه ،ويُبعَث على ما مات عليه ﴿ ومن كانَ في هذهِ أعْمَى فَهُوَ في
الآخِرَةِ أعمى وأضلّ سبيلاً ﴾ (١٧ « الإسراء » ٧٢) .

١٢ (٠ / ٨) **اشارة** : واعلم أن جوهر النفوس القدسية الالهية كلها واحدٌ ،
وإنما أوْجبَ لها الكثرةَ اختلافُ استعداد القوة الحيوانيّة التي في الجسم وتتفاوت
لتفاوت مزاج الجسم في الاعتدال ، إذ يوجد مزاجٌ أتمّ اعتدالاً من آخر ،
١٥ فأعطى الحق تعالى كل جسمٍ نفسا تليق باستعداده الذي خلقه فيه من الكمال
والنقص والقوة والضعف على ما جرت به سنّة الله تعالى ، كما أن جنس النور
واحد ويختلف أثره في الأجسام المضوّءة به لاختلافها في نفسها. وإذ قلنا
١٨ إن النور بالجملة واحدٌ فإنما يختلف بالشدّة والضعف فنورُ الشمس أقوى
من نور القمر ونور القمر أقوى من نور الكواكب ، وكذلك المياه جنسها واحد

....

١٤ اتم : في الأصل « جسم » ولكن صدرها مقطوع ثم استدركه بعضهم مخطئا
١٧ واحد : في الأصل « يوحد » وصدر الكلمة مقطوع ثم استدركه بعضهم مخطئا
١٧ المضوءة : تصحيح على الظن ، والذي في الأصل « الموجودة » وعليها تضبيب والتصحيح في الهامش مقطوع

وإنّما يتنوّع بأمورٍ عرضت لها زائدةٍ على جوهر الماء من الحرارة والبرودة والعذوبة والملوحة والغلظ والرقّة ، فهذا هو سبب الخلاف العارض للنفوس في هذا العالم ولأجل هذا الاختلاف اختلفت العلوم والمعارف والادراكات والأذواق ومنازل العارفين . ٣

(٠/٩) **وما يزيدك** وضوحا أنّا لو فرضنا شخصا واحدا قد قابلت وجهه مرايا كثيرة مختلفة الأشكال بالصغر والكبر والصفاء والكُدْرَة وسائر الاختلافات ٦ فإنّا نَجِدُ كل مرآة منها تنطبع فيها منه صورة مخالفة للأخرى وذلك لاختلاف المرايا لا لاختلاف صورة ذلك الشخص الواحد في نفسه ، فلو فرضنا مرآتين متساويتين في جميع الصفات الذاتية والعرضية حتّى لا يوجد بينهما فرق لكانت ٩ الصورة الحاصلة فيهما من ذلك الشخص واحدة ، وهذا الفرض باطل لعدم التساوي بالكلية ، لكن لما تقاربت المرايا في المناسبة تقاربت الصور في المماثلة ، فلو وُجد إنسانان متساويان في صورة الاستعداد الانساني وخُلقت لهما على هذا ١٢ التقدير نفس واحدة لكان معلومُ كل واحد منهما نفسَ معلوم الثاني وبطلت الاثنينية وحصل الاتحاد وهذا متعذّر ، وإنما يتقارب المناسب مقاربةً شديدةً وهذه المناسبة هي الموجبة للمحبّة ، وتقوى المحبّة بحسب قوّتها حتّى لا يفهم ١٥ المحبّ أنّ بينه وبين محبوبه فرقا أصلاً ، كما قيل (من المجتث) :

أفنيتَني بك عنّي يا غاية المتمنّي
أدنيتني منك حتّى ظننتُ أنّك أنّي ١٨

(٠/١٠) وبقدر هذه المناسبة يكون عشق إحدى النفسين للأخرى إذ تتصور نفسُ العاشق أنها هي ذات المحبوب وأنّ إدراكها لمحبوبها هو نفس

....

١٧–١٨ افنيتني البيتين : ديوان الحلاج Journal Asiatique 1931, 30 باختلاف في الألفاظ

إدراكها لذاتها وهذا هو معنى الاتحاد ، كما حُكي أن شخصين متحابّين ركبا سفينة فزلّت قدم أحدهما من أعلى السفينة فسقط في البحر فلما رآه صاحبه لم يتمالك أن سقط معه ، فلما رُفعا إلى السفينة قال الأول منهما لصاحبه: أنا سقطت دون قصد وأنت لماذا سقطت ؟ فقال له: ظننت اني أنت وغبت عن نفسي فسقطت . فكان انفعال الجسم عن تصوّر النفس حقيقةَ الاتحاد ، وهذا كثير في العشاق . (من الرمل) :

كلما مَسّكَ شيءٌ مسّني   فإذاً أنت أنا في كل حالِ

(٠/١١) **واعلم** أنّه متى كانت المناسبة التي بين المحبّين بالفطرة الأولى خفيت أسباب المحبّة في هذا الوجود ، وان اتّفقت بعدُ فإن كانت تلك الأسباب ظاهرةً فزمانُ ظهور المحبة بقدر ارتفاع العوارض عن إحدى الذاتين حتّى تحصل المناسبة ، وربّما كانت المناسبة فيما بعد بما يقرب بالرياضة والتنقل في أطوار المحبة حتّى تعود إلى أخصّ رُتب القُرب . وهذه الأطوار هي مقامات المحبة . (من الرمل) :

ما أرى نفسيَ إلاّ أنتمُ   واعتقادي أنّكم أنتم أنا
عنصر الأنفس منّا واحدٌ   وكذا الأجسام جسمٌ عمّنا

(٠/١٢) **إشارة**: واعلم أن النفوس ثلاثة أقسام : نفوس خُلقت متيقّظةً من ذاتها مقبلة على بارئها بالفطرة معرضة عن ما سواه ، وهذه هي نفوس الأنبياء وخواصّ الأصفياء أشرق عليها نور الحقّ فجذبها إليه وعكف بها عليه وتُسمّى مطمئنّة

---

٧ **كلما البيت : ديوان الحلاج** J. A. 1931, 82

١٠ **فزمان : في الأصل « وزمان »**

والقسم الثاني نفوس أعرضت بالكلية عن الحق تعالى وغلب عليها حبّ المحسوسات وشهوات الأجسام لاستيلاء الوهم عليها فأنكرت اللذّات الروحانية والمدارك العقلية ، وهذه هي نفوس الأشقياء ، فهي محجوبة عن الله تعالى مطرودة عن جنابه ولا مطمع في نجاتها ، وتسمّى الأمّارة ٣

والقسم الثالث نفوس أقبلت على حبّ المحسوسات إقبالا متوسّطا ولم تستغرق فيها قوّتها بالكلية بل بقي في قوّتها من اليقظة والفطنة ما تدرك به لذّة المعاني العقلية وتطلب الفضائل وتنفر عن الرذائل ،فكان لها نظران أحدهما إلى الجانب الأعلى بقدر ما فيها من اليقظة والثاني إلى الجنبة السفلى بقدر ميلها إلى حبّ الشهوات الطبيعية ،وتسمّى اللوّامة . فهذه وإن كانت محجوبة عن كثير من الحقائق الربانية يمكن أن تتزكّى بالرياضة وتلحق برتبة السعداء ، وهذا الصنف هم الذين وُضعت لهم مراتب السلوك وإليهم قصدنا بهذا التنبيه إذ الصنف الأول لا يحتاجون إلى سلوك فإن الحق تعالى أرادهم فاختصّهم بعنايته ، والصنف الثاني طُبعوا على الشقاء في أمّ الكتاب ولا تبديل لخلق الله . والصنف الثالث هم أصحاب الرياضة لأن الأصل طهارة النفس وخلوصها وما حصل فيها من الظلمة عارض والعارض يمكن زواله ما لم يستحكم لا سيّما إذا بقي في النفس قبولٌ للخير ولم يستحوذ الشرّ عليها فهي كالمرآة الصديّة يمكن جلاؤها ما لم يرسخ الصدأ في جوهرها حتى يفسده . ٦ ٩ ١٢ ١٥

ونحن الآن نَصِفُ كيفية السلوك لهذا الصنف من الناس بالرياضة حتى تصفو نفوسهم وترقّ ، ثم كيفية توصيلها بالتشويق إلى مطالعة جمال الحضرة الإلهية ومشاهدة الأنوار القدسية بقدر ما يمكننا من العبارة إن شاء الله تعالى . ١٨

---

١١ مراتب : في الأصل « قرائن »

١٦ الشر : في الأصل « الشيء »

الباب الاول

في الطريق الموصلة للنفوس الزكية
إلى المحبة الحقيقية

٣

(١/١) **اعلم** أن أجلّ ما في الوجود السعادة الأبدية كما تقدم ولا يُتوصل إلى هذه السعادة إلا بمحبة الحق تعالى بكل القلب من غير شرك في محبته.

٦ ولا يوصِّل إلى كل محبة إلا المعرفة بكمال المحبوب وجماله إذ مَنْ لا يعرف لا يحبّ ، وكلما كان المحبوب في نهاية الأوصاف الجميلة وحصلت المعرفة التامّة بتلك الأوصاف على حقيقتها ظهرت المحبة على الذات العارفة عقيب

٩ ذلك ظهوراً لازماً ، أجرى الله بذلك السنّة . فالمحبة إذاً ثمرة المعرفة والمعرفة علّة المحبة وسببها فهي متقدمة على المحبة بالسبب والمحبة متقدمة عليها بالشرف من حيث انها مقصودها ، وكل محبّ عارف وليس كلّ عارف بمحبّ[1] أعني في

١٢ ابتداء المعرفة ، فأما إذا حصلت المعرفة على الكمال وتوالت بتواليها المحبّة حصل كل واحد منهما عن الآخر ، فحينئذٍ يكون المحبّ هو نفس العارف والعارف هو عين المحبّ من غير رتبة ، وذلك أن المعرفة إذا تأكّدت أثمرت

١٥ المحبّة وإذا تأكّدت المحبة تجلّت للمحبّ أوصاف حبيبه ، ودام هذا التجلّي بدوام المحبة ودامت المحبة بدوام التجلي ، وحصل من ترادف هذه الواردات على قلب المحب معرفتها على ما هي عليه ، فقد اتّحد بهذا الشهود والتجلي

١ بمحب : في الأصل « محب »

محبّةُ العارف ومعرفةُ المحبّ ، وصار كل واحد من هذين المقامين مولّداً للآخر على التعاقب .

(٢/١) **ولما كانت المعرفة** لابدّ من تحصيلها—إذ كانت لا توجد في النفس بأول الفطرة لسبْق الأوهام إلى الإنسان أولا قبل شروق نور العقل ورسوخِ تلك الأوهام بالعادة، هذا في حق أكثر الخلق إلا النادر والشاذّ — فلا تحصل المعرفة عند الجمهور في أول الأمر إلاّ بطريق النظر والاستدلال بالصناعة الإلهية ، إذ الصنعة دالّة على صانعها بالضرورة ومشيرة إليه ، فسبيل السالك أن يتصفح الوجود ويديم الفكرة في المُبدَعات الإلهية وآثار عجائب الصنعة الربانية الدالّة على كمال صانعها وجماله وبهائه وجلاله فإن ذلك هو باب المعرفة ، كما أن العالِم الغائب عن الأبصار إنما يُستدلّ عليه بتصانيفه . وإذا كان ذلك كذلك فأجلّ الصنائع الإلهية وأعلاها دلالةً وأظهرها حكمةً وأجلاها برهانا عالمُ الانسان لِما أشرق عليه من نور النفس التي هي من عالم الأمر والدالّة عليه ، والدليل على شرفها أن الحق تعالى أضافها إلى نفسه حيث قال : ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ (١٧ «الاسراء» ٨٥) وقال ﴿ونفختُ فيه من روحي﴾ (١٥ «الحجر» ٢٩) وقال عليه السلام «من عرف نفسه عرف ربّه» إلا أن النفس لا يدركها الانسان أولا مجرّدةً عن الأجسام إذ الأجسام مظاهرها التي لا تظهر إلا بها ، فمظاهر النفوس الانسانية الصور الآدمية المعتدلة المزاج ، فإن الجسم كلما اعتدل صفا وكلما صفا حصلت فيه صورة القبول لأنوار النفس التي هي من أنوار الحق تعالى ، فلذلك كان هذا العالم الانساني من أدلّ شيء على معرفة صانعه الحق تعالى، لأنه اختصّه من بين سائر الحيوان بأسرار الملك والملكوت،

....

١٦ الانسان — الهامش : الانس — المتن

١٨ وكلما صفا : في الاصل « وكلما صفي »

٣/١

وبدائع عجائب عالم الجبروت، فله الدلالة العظمى، إذ هو الآية الكبرى، ونسخة العالَم الكلي المشتمل على الأسفل والأعلى .

(٣/١) **وانما** كانت هذه الجملة الانسانية مشتملة على أسرارِ أرواح العالَم الروحاني وبدائع صور العالم الجسماني لأنها لم تكن جسما صرفا —فان المقصود الخروج عن عالم الأجسام وقُواها إذ هي داعية إلى العالم الأسفل — ولا أيضا روحانية مجرّدة لكون النفس لا تشتاق إليها قبل الرياضة لجهلها بها بل كانت ذاتا واحدة قد اجتمع فيها الحسّ والمعنى والظاهر والباطن واللطيف والكثيف والعلوي والسفلي ، فبذلك عظُمت دلالتها على صانعها لكي تستدلّ النفس بظاهرها على باطنها وتَعَرْجَ عن حضيض سُفلياتها إلى أفق عُلوياتها ، إذ خُلِق فيها طَرفان أحدهما متصل بالعالم المحسوس يتوصل إلى معرفته بطريق الحواسّ التي هي سبب حصول العلوم الضرورية، والطرف الثاني متصل بالعالم العلوي الذي هو عالم الأنوار الإلهية والجمال القدسي وبهذا الطرف يتوصل إليه . (من الطويل) :

تبَدّى لنا في كل شيء حبيبُنَا فتِهنْا كما تاه الكليمُ به عُجْبا
وما نحن إلا حُجبُهُ وهو سِرّنا ويفهم سرّ الحجب مَن فهم الحُجبا

فإذا تأملت النفس الصحيحةُ الفطرة. بما وَدّتْها إليه فكرتها إلى هذه الذات الانسانية تأمّلا شافيا واستعملت الاعتبار بها استعمالا كافيا وشاهدتْ غرائب الحكمة المودّعة فيها من جميع جهاتها وأحاطت علما بكُلّياتها وجزئياتها التذّتْ بهذا العرفان، وقام لها منها عليها واضح البرهان، فكانت لذتها <بها> أعظم من لذّات المحسوسات الطبيعية والمنازع البهيمية ، فإذا حصل لها هذا النوع من الادراك اشتاقت إلى الكمال فيه، ويقوّيها على ذلك ويؤكّده لديها

....

١٦ ودتها : كذا في الأصل مشكولا ولعله « هدته »

٤/١

ان النفوس خـُلقت بالفطرة تألفُ بعضها بعضا من أجل المناسبة الأولى ، حتى
تصل بتلك المناسبة إلى العشق والافتتان ويكون السبب الموجب لذلك ما تؤدّيه
إليها حاسّة البصر من جمال النفس المحبوبة المُشرق عليها من عالم الجمال ٣
المنعكس منها ذلك على أعضاء بدنها، فإن نور الجمال شيء تعشقه النفوس بالسرّ
المودَع فيها وتُجذَبُ إليه بخواصّ جوهرها وليس للجمال الجزءي حقيقة
إلا إشراق نور النفس على الصورة المعتدلة المزاج الحسنة التأليف ، فإنها كلما ٦
كانت الصورة كذلك قَبِلتْ من جمال النفس بقدر ذلك الاعتدال ، فلذلك
نجد النفوس السليمة الطباع تأنسُ بالجمال وتحنّ إليه بقدر ما فيها من اللطافة
حتى تذلّ له وتخضع وتنقاد غاية الانقياد ، كما قيل (من الطويل) : ٩

وكم قد أذلّ الحبُّ من متعزّزٍ فأضحى وثوبُ العزّ عنه سليبُ
وإنّ خضوع النفس في طلب الهوى لأمرٌ إذا فكرتَ فيه عجيبُ

(٤/١) **تنبيه** : ولما قلنا إن النفس قبل كمالها لا تكتسب المعارف المكمّلة ١٢
لذاتها إلا من الخارج بطريق الحواسّ ،، حتى ان مَن فقد الحواسّ فقد فقَد
العلوم الضرورية ، ولا تدرك النفس الجمال الجزءي إلا بحاسّة البصر ، فإن
البصر مهما أدرك الصورة الحسّية عند المقابلة بما فيه من النور الباصر ونَقَلَها ١٥
إلى الخيال تمثّلت فيه على ما كانت عليه في الخارج ، ويكون انطباع الصورة
في الخيال بقدر صفائه وسلامته من الآفات ، فإن كان للنفس اعتناءٌ بهذه الصورة
حفظتها الحافظةُ حتى تنقلها إليها وإلا امتحت وتلاشت ، ولا تزال النفس ١٨
تطّلع على خزانة الصور وتنظر لما يحصل فيها من الصور بواسطة الجزء الفكري،
وإنما مثالهما في ذلك كمثل مرآةٍ مقابلة لأخرى وفي الأولى منهما نفوس كثيرة
وصور مختلفة فإن جميع ما في المرآة الأولى ينطبع في الثانية ، وقد يغيبُ بعض ٢١
تلك الصور لضعف القوة الحافظة فلا تزال النفس تطلبه بواسطة القوة المفكّرة
حتى تستفيده من عالم الغيب الذي تتلقّى منه النفوس معارفها ، لأن النفوس

بطول العناية بتلك الصورة تستعدّ لحصولها من عالم غيبها لا من خارجٍ ،
ثم كلما ناسبتْ تلك الصورة التي في الخيال النفس تصرفت فيها القوة المفكّرة
٣ فجرّدتْ منها عوارض الجسم وأخذت منها المعنى الروحاني ، وهو الجمال
المجرّد عن علائق الجسم الذي هو مناسبٌ للنفس المجرّدة ، فتنطبع هذه الصورة
المجرّدة في النفس المدركة انطباعا متمكنا من أجل المناسبة ، فتحصل لها بها
٦ علاقة شديدة لشهودها لذاتِ الجمال المجرّد في ذاتها بذاتها دون احتياج إلى
تجديد أمر من الخارج ، وتعظم هذه العلاقة في النفس لابتهاجها بإدراك روح
الجمال ، ثم لا تزال هذه الصورة المنطبعة في النفس تزداد لطافةً وروحاً ومحلّها
٩ صفاءً وإشراقاً إلى أن تتّحد بها النفس اتحادا عقليّا بحيث تستغني عن العوارض
الجسمية والصور الخارجة اكتفاءً بما حصل فيها ولعلمها أن صورة المحبوب
الحقيقية إنما هي التي حصلت عندها وأنّ رسوم الجسم ليست هي تلك الصورة
١٢ الجميلة وإن كانت الأجسام مظهرا لها ، كما أن المرآة مظهرٌ للصورة المرئية بها
وليست المرآة هي الصورة ولا الصورة فيها ،على ما يُبرهَنُ عليه في موضعه .
وإنما استغنت النفس بهذه الصورة التي فيها لأنها فيها ألطف وأقرب مناسبةً
١٥ وأشدّ روحانيةً مما هي في الخارج،فلهذا مازجتها النفس أشدّ ممازجة
لتجرّدهما جميعا عن الموادّ والعلائق بخلاف ما هو في الخارج،ثم لما حصلت
النفس مدركة للصور الروحانية بذاتها وغير مفتقرة إلى الحواسّ وعلمت أن
١٨ الذي أدركت أثر من آثار العالم العلوي اشتاقت إليه بالكلية،وعنده استعدّت
لتلقّي الجمال الكلّي من أفق العالم العلوي فيسنح لها الجمال الكلي من العوالم
النورية وتلتذّ بذلك لذّة تحتقر معها لذة جمال الأجسام الانسانية وإن كان كلّ
٢١ ذي جمال محبوبا، جزءيّا كان أو كُلّيّا، لأنه أثرٌ من آثار العالم العلوي
المعشوق ، إلا أن الجمال المشرق على الهياكل الانسانية يكون بواسطة نفسه
والمُشرق من العالم العلوي على النفس تدركه دون وساطة ولا تحديد ، وجنسهما
٢٤ واحد وإنما الفرق بينهما تفاوتهما في القوّة والضعف الذي أوجبه اختلاف

مَحالتِّهما كما أنّ عكس النور أفضل من عكس عكسه .
فالجمال الظاهر يفهم بواسطة الحواسّ والقوى البدنية ، والجمال الباطن
تفهمه النفس من ذاتها بذاتها لكن بإفادة العالم الأعلى . ٣

(١/٥) فقد تمحّض مما قلناه أن للإدراك ثلاث مراتب . **أولها** الإدراك
الحسّي وهو أخذ الصورة بحاسّة البصر دون تشكّل في الخيال إلا بقدر زمان
الرؤية . وهذا أضعف الإدراكات وأبعدها عن اللذة الحقيقية . **الثاني** ٦
الإدراك الخيالي وهو وجود صورة المحبوب في الخيال ثابتة فيه . **الثالث**
الإدراك العقلي وهو انتقال صورة المحبوب إلى ذات النفس عند التجريد من
العوارض. وهذا هو الإدراك الحقيقي والاتصال الكلي والمطلوب الأشرف ، ٩
فإن الأول سريع الزوال وسبيله التغير والانتقال ، والثاني طويل المُقام لكنه
غير بعيد من الانصرام، والثالث باقٍ ببقاء الذات ثابتٌ على اختلاف الحالات
وكل محلّ حصل فيه المحبوب ولم يفتقر في كونه فيه إلى ما قبله فهو أكمل وأصفى . ١٢
ولنقتصر على هذا القدر ونرجع إلى ما كنا فيه من ترتيب السلوك .

(١/٦) **فصل** : اعلم ان النفس إذا أدركت جمال نفس إنسانية مناسبة لها
إدراكا عريًّا من العلل والعوارض يحصل لها من الابتهاج واللذّة بجمال ما أدركت ١٥
ما يُزيل عنها كثيرا من حبّ الشهوات البدنية التي كانت قبل هذا مألوفة لها ،
حتى انها إذا أمعنت في ذلك تنصرف عن عشق بدنها الذي كانت تحبّه وتعشقه
بطبعها ، ولهذا نجد العاشق يسلبهُ عشقُه للكمال عن لذة المطعم والمشرب ١٨
والنوم وهي من الأمور الضرورية للجسم ، بل يحصل للنفس من الطرب
والسرور بما هي فيه من اللذة الروحانية ما يشغلها عن الشعور بما فاتها من

---

٤ مراتب : في الاصل « المرات »
١٠ التغير : في الاصل « التغيير »

اللذات الحسيسة ، كما قيل (من البسيط) :

لها أحاديثُ من ذكراك يشغَلُها عن الشراب ويُلهيها عن الزادِ

٣ وعند ذلك تتوجه بوجهها إلى حبّ اللذات الروحانية ويصير حبها للصفات المعنوية أكمل إلى أن تتبرّم بما كانت فيه من قبلُ ، فإنها كانت باعتبار إقبالها عن لذة المطعم والمشرب والمنكح وقَصْر الإدراك عليها بمنزلة البهائم بل شرّ
٦ منها فإنّ البهيمة لم يُخلَق لها استعدادٌ سوى ذلك والانسان خُلِقَ مستعدّا لنيل الكمال الخاصّ به . (من الوافر) :

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمامِ

٩ وإذا بلغت النفس إلى هذا الحد تجمّعت مفترقاتها ، وتألّفت قواها ، وتضافر إدراكها الذي كان قبل هذا موزّعا على تحصيل لذّات المحسوسات ، فتصير بعدَ الشتات همُّها همّا واحدا وهو الإقبال بكل الهمة على حب المعنى
١٢ الأشرف والقرب من العالم الأقدس ، وتقول (من الطويل) :

تركتُ هوى ليلى وسُعدى بمعزلٍ وعُدتُ إلى مصحوبِ أول منزلِ
ونادتْنيَ الأشواقُ مهلاً فهذه منازل من تهوى فدونك فانزلِ
١٥ وخذ بنعيمٍ قدْ صفَا لك شربه ودَعْ ما سوى الأحباب عنكَ بمعزلِ

وعند ذلك تتسلط عليها دواعي الشوق إلى استكمال وصال هذه النفس المعشوقة والاتحاد بها، إذ وصال الأرواح اتّحادُها الذي معناه قرب المناسبة
١٨ بين النفسين حتى لا يخطر للعاشق أن ذاته شيء غير ذات محبوبه بل يعتقد أنه

....

٨ للمتنبي ، ديوانه بشرح العكبري (مصر ١٩٣٦) ٤ / ١٤٥
١٠ وتضافر : في الاصل « وتظافر »

هو ؛ وبحصول هذا الاتحاد يزول معنى الفراق الذي هو عذاب النفوس فالفرقةُ عذابٌ ولا سيما فراق المُشاكل ، وكلما هاج الشوق انزعج القلب إلى كمال الوصال ، والوصالُ كما تقدم وصال الأرواح لا مجرّد لقاء الأجسام ، ٣ فإنه لا جدوى له إذ قد نَجِدُ المتباغضين يجمعهما مكانٌ واحدٌ و ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبُهم شتّى ﴾ (٥٩ « الحشر » ١٤) وإنما القريب من قرّبته المناسبة والبعيد من أبعده عدم المناسبة . (من الكامل) : ٦

دع ذكر أحجارٍ وذكر منازلٍ وتولّ عن بان العقيق ولَعْلَعِ
وٱنظر فؤادَك تلقَ من أحببته فيه وعَدّ عن اللِوَى والأجْرَعِ
ومن العجائب أن أكون مُسائلاً عن حاضرٍ ما زلتُ أُبصرهُ معي ٩
مثواه في قلبي ونورُ جماله في ناظري وحديثه في مسمعي

الباب الثاني

في ذكر المحبة ومعانيها
واختلاف عبارات الناس فيها

(١/٢) **اعلم** أن المحبة هي أصل جميع المقامات والأحوال ، إذ المقامات كلها مندرجة تحتها فهي إما وسيلة إليها أو ثمرة من ثمراتها كالإرادة والشوق والخوف والرجاء والزهد والصبر والرضى والتوكل والتوحيد والمعرفة ، ولهذا اختصّ بكمال هذا المقام سيّدُ النبيين، وإمام المرسلين، عليه أفضل الصلاة والتسليم، فإنه أُعطي من سرّ هذا المقام ما لم يُعطَ غيرُه من الأنبياء عليهم السلام، ولتحقّقه به قال الله تعالى فيه: ﴿ من يُطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (٤«النساء» ٨٠) وقال تعالى: ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ (٤٨«الفتح» ١٠) وقال: ﴿ قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ﴾ (٣ «آل عمرن» ٣١) وحسبك أن جعل طاعتَهُ عينَ طاعته ومحبّته شرطا في محبّته ، وما ذاك إلا لأنه وَفّرَ نصيبتَه من نوره الذي أفاضه على العالم الأسفل بواسطته، ولذلك سمّاه نورا مبينا وسراجا منيرا وجعله رحمة للعالمين . فبذلك النور كان عليه الصلاة والسلام يدعو الخلق إلى ربه تعالى ليوصلهم بالنور إلى النور . وهنا سرٌّ يفهمه أربابه الذين وصلوا إلى حقيقة الذوق لا يمكننا النطق به . (من الطويل) :

شرِبْنا على زهر الربيع المُفوَّفِ   وجاء لنا الساقي بصهباءَ قرقَفِ
فلما شربناها ودبّ دبيبُها   إلى موضع الأسرار قلت لها : قفي

مخافةَ أن يسطو عليَّ شعاعُهـــا فيطلعَ جُلاَّسي على سرّيَ الخفي

(٢/٢) **ومن الدليل** على أن المحبة مشتملة على جميع المقامات والأحوال ان الإنسان لا يحبّ محبوبا إلا بعد العلم بكمال ذات ذلك المحبوب. ثم يتأكّد هذا العلم عنده ويتوالى فيكون معرفةً فتنبعثُ عن ذلك الارادةُ ثم الشوق إلى جمال هذه الذات ، ثم يلزم عن المحبة الصبر على شدة الطلب ، وينبعث له في أثناء ذلك خوفُ الحجاب ورجاءُ القرب والوصال ، ثم تُثمر المحبةُ الرضى بجميع مُراد المحبوب والزهدَ فيما سواه واعتقاد وحدانيته أعني انفراده بصفات الكمال فإن ما سواه عدمٌ محض ، وإسناد الأمور كلها إليه بالتفويض له والتوكل عليه .

(٣/٢) **وأما الأحوال** التابعة للمحبة فهي مثل الأنس والبسط والقبض والمراقبة والهيبة والفناء والبقاء والمشاهدة وسائر الأحوال ، فقد دخل في مجموع هذا المقام سائر المقامات والأحوال فإنها كلها مُرادةٌ له سواء كانت سابقة أو لاحقة ، إلا أن هذا المقام لدقّة معناه عن الافهام واعتياصه عن الأذهان يحتاج إلى شرح أبسط من هذا ، فنقول :

(٤/٢) **اعلم** أنه قد اختلف الأولون والآخرون في حدّ هذا المقام وتباينوا في العبارة عن حقيقته إذ كلٌّ منهم إنما يعبّر على حسب ذوقه منه وينطق بمقدار حاله وكلٌّ قاصر لعجزه عن الاحاطة بحقيقته ، ومَن وصل إلى شيء منه من أهل التحقيق لم يخاطب الجمهور به إلا رمزا وتلويحا ، فإنه أعظم من أن تُشرَح حقيقتُه بالنطق وحسبُ المعبِّر عنه الايماء ، فأما شرح الحقيقة باللفظ الصريح فمتعذّر جداً ، ونحن نُورد من عبارات الناس عن هذا المقام ما هو كالاشارة والإلماع .

قال الحسين بن منصور الحلاج : المحبة قيامُك مع محبوبك بخلع أوصافك

لأن كلّية المحبّ تطابق كلّية المحبوب فغيبتُه غيبة محبوبه ووجوده وجوده .

وقيل : المحبة سرور القلب بمطالعة جمال المحبوب .

٣ وقيل : المحبة محو المحبّ بصفاته وإثبات المحبوب بذاته .

وقيل : حقيقة المحبة أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب .

وقيل : المحبة نار في القلب تُحرق ما سوى المحبوب .

٦ وقيل : المحبة أن تهب كلّيتَك لمحبوبك فلا يبقى لك منك شيء .

وقيل : حقيقة المحبة ما لا يصلح إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب .

٩ وقيل : المحبة معنى من المحبوب قاهرٌ للقلب تعجز العقول عن إدراكه وتمتنع الألسنة عن العبارة عنه .

وقيل : المحبة أغصانٌ تُغرَس في القلب فتُثمر على قدر العقول .

١٢ فهذه أقاويل مفترقة ترجع إلى معانٍ متقاربة كلها خارجة عن الحقيقة إذ هي إما ثمرة من ثمراتها أو لازم من لوازمها ، وسبب من أسبابها ، أو شرط فيها ، والحقيقة كما قلناه لا يمكن أن تؤخذ من الألفاظ ، فإن الألفاظ المتعارفة

١٥ لا يوجد فيها لفظ يوفي بحقيقة المقصود ، وأيضا فالمحبة ألطف الأشياء فإذا كُسيتِ الألفاظَ والحروفَ — وهما من عالم الحس الكثيف — فقد كثُفت لذلك وخرجت عن موضعها من اللطافة الذاتية لها .

١٨ **وأيضا** فإن المحبة لا يعبِّر عنها حقيقةً إلا من ذاقها ، ومن ذاقها استولى عليه من الذهول عن ما هو فيه أمرٌ لا يمكنه معه العبارة ، كمثل من هو طافح سُكرا إذا سُئل عن حقيقة السكر الذي هو فيه لم يمكنه العبارة في تلك الحال

٢١ لاستيلائه على عقله . والفرق بين السكرين أن سكر الخمر عرضيٌّ يمكن زواله ويُعبَّرُ عنه في حين الصحو ، وسكر المحبة ذاتيّ ملازم لا يمكن من وصل إليه أن يصحو عنه حتى يُخبر فيه عن الحقيقة ، كما قيل (من البسيط) :

٢٤ يصحو من الخمر شاربُوها والعشق سُكرٌ على الدوامِ

٥/٢

وأيضا : فإن الحد الحقيقي هو ما تركّب من جنس وفصل ؛ والمحبة لا جنس لها ولا فصل .

(٢/٥) **وأما حدّها** على ما تعطيه العبارة اللفظية فهو ابتهاج يحصُل للنفس عن تصوّر حضرة ذاتٍ مّا ، فهذا من أجوَد ما تُحَدّ به المحبة ، لأنّا قد نجد ظهور بعض الأمور الغريبة التي يُجريها الحق تعالى في العالم إنما يكون سببه شدة تصوّرات النفس، وكلما كان التصوّر شديدا كان ذلك أشدّ، فيتعدّى بهذا التأثير أولا إلى بدنها ثم إلى الخارج ، فإن كانت النفس فاضلة كان ما يظهر عنها نورانيًا فيه لذّةٌ وقهرٌ كالمحبة، وإن كانت شريرة كان ذلك شرًا وفسادا موجبا للألم والهلاك ، كالأخذ بالعين إذ معناه أثرٌ يُحدثه الحق بواسطة نفس خبيثة بتصوّر هلاك شخصٍ يحصل عن ذلك التصوّر .

وكذلك النفس الحيوانية إذا تصوّرت صورة ملائمةً لطبعها يبعث ذلك التصوّر أعضاءَ بدنها على جلبه ، وإن كان غير ملائم دفعتها عنها بالقوة الغضبية ، وقد يحصل عن تصورات النفس الحيوانية أعراضٌ كثيرة على سطح بدنها مثل حُمرة الخجل وصُفرة الوجل واشتعال الحرارة عند الغضب بعد كمونها واستحالة الدم إلى المنيّ عند تصور لذة الوقاع إلى غير ذلك . وأما الوهم فربما صوّر في الخيال صُوَرا تُوفّر في الأجسام فسادَ المزاج حتى يؤدّي ذلك إلى الموت .

فإذا كان يَظْهَرُ بتوسط قوى النفس الحيوانية هذا الأمرُ فما ظنّك بتصوّرات النفس الإلهية! فإنها إذا تصورت قرب الحق تعالى ولذة مشاهدته التي هي غاية كل كمال ونهاية كل جمال فلا تُقدّر اللذة الواردة على العارف في تلك الحال ولا تحرّر العبارة عن شدة طربه الروحاني وابتهاجه القدسي ، ونحن نشاهد مَن تفكّر في عظَمة الحق تعالى وكبريائه وعزّ جلاله ترد عليه من أنواع الاضطراب والإغماء والخروج عن عالم الحسّ أمورٌ عظيمة ، وربما خرجت روحه فرَقاً وخوفاً من الله تعالى ، ومن تفكّر في بدائع جماله وكماله طارت

٦/٢

نفسه محبّةً له وشوقا إليه .

ولو أنّا وجدنا عبارة عن اللذة الحاصلة للمحبّ عند تصوّر حضرة محبوبه
٣ بلفظ هو أعظم من لفظ الابتهاج لشرحنا به معنى المحبة ، لكن لا يمكن أن
نوفي بذلك عبارة ، وناهيك من لذّة هي لذة الملائكة المقرّبين وخواصّ
أصفياء الله العارفين فهي أعظم من أن تمرّ على خاطر . ولذّات النفوس
٦ الفاضلة لا تُقدَّر ولا تُحَدّ إذ لذّاتها بذاتها في ذاتها وبما يَرِدُ عليها من
جمال العوالم النورية المستفاد من جمال الحق تعالى لا بأمرٍ مّا خارجٍ إذ الأمور
الخارجة لا تفعل في النفس شيئا لكنها تحرّك منها ما أُودع فيها أو تُعِدّها
٩ لتلقّي ما يَسْنَح لها من عالم القدس ، ولهذا قال بعض العارفين : « إنما لذّاتي
بذاتي في ذاتي » .

فهذا ما حضرّنا من شرح حقيقة المحبة على الاجمال ، فإن أردت ما هو
١٢ أبيَن من هذا وكنت أهلا له فنحن نشير لك إلى طرفٍ منه فنقول :

(٦/٢) **اعلم** أن الحق سبحانه لما أشرق نورُه القدسي الذي هو عبارة
عن سرّ الوجود والحياة والجمال والكمال على العالم الكلي فأول ما ظهر وتجلّى
١٥ على الذوات العاقلة العارفة وهم الملائكة المكرمون فحصل لها بها ابتهاج شديد
لا يمكن وصفه وتصوّرتْ ما حصل لها به من الظهور والجمال والكمال والنور
فتضاعف ابتهاجها ونظرتْ إلى ذاتها فرأتها عاجزةً قاصرة عن الاحاطة بإدراك
١٨ كمال هذا النور متلاشيةً عند مشاهدة جلاله فخضعتْ عند ذلك لسلطان قهره
وعزّة كبريائه واستشعرت عدمها عند وجوده ونقصها مع كماله، فحصل لها
باعتبار هذين الوصفين صفة المحبة التي هي ابتهاج يشوبه قهرٌ ، ثم إن هذه
٢١ الذوات لما استنارت بهذا النور الإلهي وغابت فيه عن ذواتها تكيّفت به إلى
أن صارت كلها نورا محبةً لذاتها ولبارئها . أما محبتها لذاتها فلما بها من

....

٧ ما : استدركت بالهامش

٧/٢

نور الحق تعالى ولأنها هي الذوات الكاملة العارفة التي اختصّها الحق تعالى فان
الذي حصل لها ويحصل من كمال وجمال ووجود وبقاء فإنما هو من لدنه
لا من ذاتها ، فصارت باعتبار ما بها من نور الحق تعالى سُرُجا منيرة مُحبّة ٣
لأنوار القدس معشوقة لمن دونها ، ثم سرى منها هذا الأمر إلى عالم النفوس
الانسانية التي هي كالزجاجة القابلة للنور بشدة صفائها وبما جُعل فيها من القبول
له فابتهجت بإدراكه وتصوّرها اياه في ذاتها بذاتها فقَوي عشقها له لاتحادها ٦
به ، ثم إنها ألقت شعاع جمالها على صفحات ابدانها الآدمية المعتدلة التي هي
في المثال كالمشكاة لهذا النور إذ هي تقبل النور ولا تُنير ، وعند هذه الأبدان
انتهى نور الجمال القدسي المعشوق للنفوس كما أن عند النفوس الانسانية ٩
انتهت الأنوار الموجبة للمحبة ، إذ مجرّد الجسم لا يُعرَف فيُحَبّ ، فإن المحبة
ثمرةُ المعرفة وإنما عدمت الأجسامُ إشراقَ النور الموجب للمحبة في ذاتها
لأن ذاتها كثيفة ظلمانية غير متكيّفة بالنور بل هو فيها عارض فإذا جُرّد ١٢
عنها بقيت مظلمة . (من البسيط) :

كمّلْ بعشق جمال الكون نفسك إن أردتَ تكشفُ سرّ العالَمَين معا
فإنما النفس كالمرآة إن ظهرت أرَتْك فيها جمالَ الكلّ منطبعا ١٥
وجَرّدِ الحسن عن ظلٍّ يُقاربه تُدركْهُ فيك بأُفق النفس قد طلعا
فاشهَدْهُ منك وغِبْ عما سواك تجِدْ في ضمن ذاتك معنى الكل قد جُمعا

(٧/٢) **فهذه نبذة** يسيرة من شرح حقيقة المحبة لا يفهمها إلا من فهم ١٨
سرّ معنى قوله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض مَثَلُ نوره كمشكاةٍ فيها

....

١ فان : في الأصل «فلان »
٩ انتهى : في الأصل « انتها »
١٠ المحبة : في الأصل « بالمحبة »

٨/٢

مصباحٌ المصباحُ في زُجاجةٍ الزجاجةُ﴾ الآية (٢٤«النور»٣٥) فالحق تعالى هو نور السموات والأرض لا مثل له ولا ندّ ، لأن الكلّ منه وعنه ، ومثال الذوات
٣ العارفة الذين هم الملائكة المقرَّبون المصباح والسراج لأنها منيرة مستنيرة ، ومثال النفس الانسانية العارفة الزجاجة لصفائها وقبولها النور من غيرها ، ومثال الأجسام الآدمية المعتدلة المشكاة لانعكاس النور إليها ، والمحبة هي الدُهن
٦ الذي تُوقَد به هذه السُرُج كلها ، وهو مستخرج من الشجرة المباركة التي هي شجرة المعرفة التي لا شرقية ولا غربية لتنزّهها عن الجهات إذ معروفها لا في جهة ، وهذا الزيت هو صفو ثمرتها الذي ﴿يكادُ﴾ من شدة صفائه ﴿يضيء
٩ ولو لم تمسسْه نارٌ﴾ معناه أنه ينير ولو لم تستمدّ النور من غيره فإذا أشرق عليه نور القدس كان ﴿نوراً على نور﴾ .

واعلم أن هذه الأنوار التي هي سُرُج العالم النوراني وإن كان بعضها
١٢ مستمدّاً نوره من بعض فكلها مفتقرة في نورها إلى نور الحق تعالى الذي هو نور الأنوار . ولما كانت النفس الانسانية إليها ينتهي النور الذي يشوبه المحبة — إذ المحبة كما قلناه من صفات الذوات العارفة — لم يتّصف لذلك بالمحبة
١٥ جمادٌ ولا موَاتٌ ولا ذو نور عارض . (من البسيط) :

جسومُنا كالمشاكي والنفوس لها مثل الزجاج ونور العقل كالسُرُجِ
جرّدْ تجدْ كل حُسنٍ فيك مجتمعا إنّ ابن آدم يُعطَى أفضلَ الدرَجِ
١٨ جمالنا باطنٌ لو كنتَ تُخرجه . إلى الوجود للاحَ الحقُّ بالحُجَجِ

(٨/٢) **تنبيه** : فقد تقرر من هذا أن النور الإلهي وإن كان واحدا فقد اختلفت آثاره في الذوات لاختلافها ، فبعضها قبلت منه صفةَ الوجود والحياة
٢١ والمعرفة والمحبة والجمال وهي الذوات العارفة الكاملة ،وبعضها قبلت منه صفة

---

٧ لا (الثالثة) : زيدت في الأصل فوق السطر
٢١ — ص ١/٢٦ وبعضها ... الاجسام : مستدركة بالهامش

٩/٢

الوجود والحياة والجمال وهي الأجسام التي تُدبّرها الأنفس العارفة ، وبعضها قبلت الوجود والجمال وهي أجسام الحيوان والنبات ، وبعضها لم تقبل من هذا النور إلا صفة الوجود خاصّةً وهي أجسام الجماد المظلمة في ذاتها ، وإنما حصل لها من النور الوجودي رَشٌ به ظهرتْ من ظلمة العدم وبه تناسبت مع أجناسها لاشتراكها في الوجود . فالمحبة إذاً من صفات المقرَّبين وبها كمال الوجود الحيّ وتمامه، ولم يخلُ عنها في العالم إلا أخسّ أقسامه وهو مجرّد الأجسام ، وبقدر وفور نصيب العارف منها يكون قربه من بارئه وبضعف نصيبه منها يكون نزوله إلى أُفق البهائم وحضيض العالم الأسفل . فليس في العالم باعثٌ على العروج إلى عوالم النور شيءٌ سواها فهي أشرف الوسائل وأكمل ما اتّصف به كلّ عارفٍ كامل : (من الكامل) :

أيّ النسيم سرَى بأيّ خيامِ   متوشّحا بذوائبِ الأعلامِ
وافى وقد عَبِقَتْ بنشرِ أحبّتي   نفَحاتُه لا عرْعرٍ وثُمامِ
فطربتُ لا أدري بأيّ لطيفةٍ   وسكرْتُ لا أدري بأيّ مُدامِ
لولا هوًى للروح بين خيامهم   ما كنتُ ولاّعاً بكل خيامِ

(٩/٢) **وقال بعض العلماء** : المحبة صفة عامّة سائرة في سائر الذوات على اختلاف أجناسها حيّها وجمادِها ، إذ النور الذي به ظهرت عامٌّ في الموجودات كلها من لدن أعلى عليّين ومنحدرا إلى أسفل سافلين وأن بالمحبّة تمّت الكائنات وعنها وُجدَتْ على اختلاف الحركات ، حتى إن حركة الخائف إنما بعثه عليها حُبّ النجاة فمن أجل ذلك تحرّك ، فهي كامنة في كل جوهر وما من وجود في العالم إلا وله نصيب منها قلّ أو كثر بَطَنَ أو ظَهر ، فهي أعمّ نِسَب الوجود ، وبقدر نصيب الذات تُناسب جميعَ الذوات وتشاركها

١٧ وان : لعله « واذ »

١٠/٢

وبحسب ذلك يكوّن صعود الصاعد منها إلى العوالم الروحانية ، فهذا ما ذكره ،
والأول عندي أكثر تحقيقا لأنّا نُسلّمُ التعاشق الذي بين ذوات الأنفس وبين
٣ ذوات الأرواح ، وأما الذي بين الجمادات من التآلف والمناسبة كما هو بين
الحديد والمغناطيس أو المنافرة كالذي يوجد بين بعض الأحجار والخلّ في
منافرته له حتى إنّ هذا الحجر إذا أُلقي في الخلّ لا يرسُب فيه على استقامة بل
٦ على الانحراف فهي خواصّ جعلها الحق تعالى فيها بحسب تناسب قواها
وتقارُب طبائعها الجسمية ، لانها عن أسباب روحانية . وقد انقضت إشارتُنا
إلى التنبيه على المحبة الكلية .

٩ (١٠/٢) **فصل** : وأما المحبة الجزءية التي إليها قصدنا وعنها عبّرنا
التي هي أذواق النفوس الانسانية وأرواح لطائفها الربانية الموصلة بها إلى العوالم
القدسية الجامعة شملها بالنِسَب الكلية فهي سُلافةٌ نوريةٌ إذا دارت على
١٢ النفوس المتيقظة أسكرتها بصفوِ مُدامها ، وأسمعتها لذيذ نغمات كلامها ،
فطربتْ وحنّتْ إلى محلّها الأعلى وجنابها الأسنى ، وخرقت الحجب والأستار
وزُفّت إلى أفُق لطائف الأسرار ، ولذّتُها لا تنفكّ عن شائب ألمٍ
١٥ يشوبُها ، إذ من لوازمها الشوق وهو زاعجٌ يزعج النفس لطلب كمال
الإدراك وتمام اللذة به فهي عذابٌ في نعيم ولذّةٌ مشوبةٌ بقهر ، كما
قيل (من المجتث) :

١٨ فهل سمعتم بصَبٍّ صحيح قلبٍ سقيمِ
مُنعَّمٍ في عذابٍ معذّبٍ في نعيمِ

فالمحبُّ يتنعم بما به يتعذّب ويتعذّب بما به يتنعّم ، إلا أنّ هذا العذاب
٢١ محبوبٌ جدًّا لامتزاجه بلذّة المحبة واتحاده بها . (من البسيط) :

....

٧ لانها : في الاصل « لانها »

١٨ فهل سمعتم البيتين : هما في الفتوحات المكية ٧٣/٢ ، ١٥٢/٤ و ١٩٤ باختلاف في الالفاظ

١١/٢

يا من يُعذّبُني لمّا تملّكني ماذا تريد بتعذيبي وإضراري
تروقُ حُسناً وفيك الموتُ أجمعُهُ كالصقل في السيف أو كالنور في النارِ

وكلما عظمت لذة المحبة خفي الألم وامّحق كما ينمحق نور السراج في ٣
نور الشمس ولا سيما عند المشاهدة ، إذ الاحساس بالألم مانعٌ من صفاء المشاهدة
وشائبٌ فيها . ألا ترى أن المحبة حجاب عن شهود المحبوب إذ الأصل الخروج
عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب ، ولا تخلصُ المحبة عن شائبة الألم إلا عند ٦
حالة الاتحاد على ما قررنا في هذا الكتاب .

(١١/٢) **اشارة** : وإذا كانت الصفات المشهودة من المحبوب لاتُحصَى
كثرةً ولايمكنُ ورودها عن المحبّ جملةً بل تتعاقب بحسب زيادة الادراك ، ٩
وكل صفة منها توجب في النفس أثرا فإذاً لا يزال المحبّ أبدا يسعى في طلب
الزيادة ، فمهما تبدّت له من محبوبه صورةٌ جميلة اشتاق إلى إدراكها لتحصيل
لذتها بها ، فاذا أدركها طلب ادراك ما هو أعلى ، إذ تجلّيات المحبوب لا آخر ١٢
لها ، والشوق يحرّك المحبّ إلى تكميلها ، فهو بالشوق إلى تحصيل هذا الكمال
يتألّم وبالنظر إلى جمال ما يشاهده من محبوبه يتنعّم ، كما قيل (من البسيط) :

ما يرجعُ الطرفُ عنه حين يُبصرُه حتى يعود إليه الطرف مشتاقـــا ١٥

فالمحب لا يُقنعه من محبوبه شيء ، ولا يقف في شهوده مع شيء دون
شيء ، حتى يصل إلى الكمال في المشاهدة .

ولما تقرر أن الصفات الواصلة إلى المحبّ من تجلّيات المحبوب لا نهاية لها ١٨
كان الشوقُ إلى حصولها واللذة بنيلها لا نهاية لها أيضا ، ولا يدخل ذلك تحت
عبارة . (من الكامل) :

شوقي إليك مجاوزٌ وَصْفي وظهورُ وجديَ دون ما أُخفي ٢١

٩ المحب : في الاصل « المحل »

يا ليت جسميَ كلَّهُ حَدَقٌ حتى أراك وليتــه يكفي
ما دارَ ذكرٌ منك في خَلَدي إلا طرفتُ بدمعتي طرْفي

٣ (١٢/٢) **تنبيه** : واعلم أن لذّة المشاهدة بقدر كمال الإدراك، وكمال الادراك يختلف بأمورٍ هي اختلافُ المُدرَك والمُدرِك والادراك وتفاوتُها في الكمال والنقص .

٦ أما المُدرَك وهو صفات المحبوب التي تتجلى بها المحبة ، فمتى كانت على غاية الكمال ونهاية الحسن والجمال كانت المشاهدة أكمل . الثاني المدرِك وهو المحبّ ، فمتى كان المحب في نهاية المحبة ونفسُه في نهاية الشوق وعلى غاية

٩ الصفو والرقّة كانت لذة الادراك والمشاهدة أعظم . الثالث حالة الادراك وذلك أن الذي يشاهد محبوبه في صفاء الجو عند انتصاف النهار دون حائل ولا تشويش أكملُ لذّةً من الذي يشاهده خلف سترٍ أو في غيمٍ ، وكلما كان

١٢ الادراك أتمّ كانت اللذّة أعظم وأكمل . (من الوافر) :

أراك تزيدُ في عيني جمالا وأعشقُ كلَّ يومٍ منك حالا
تزيد مــلاحةً وأزيد عشقا فحالي فيك ينتقل انتقــالا

١٥ فهذا ما أمكن من العبارة بحسب ما يليق بهذا الكتاب .

....

٦ تتجلى – نجم : في الاصل « تحلى »
٩ الصفو : في الأصل « الصفي »

الباب الثالث

في أقسام المحبة الجنسية والنفسية

(١/٣) اعلم أن المحبة تنقسم إلى قسمين : أحدهما بحسب جنسها والثاني ٣
بحسب ما في نفسها . أما قسمتها الجنسية فإنها تنقسم أولا إلى ذاتية وعرضية ،
فالذاتية هي التي يُحَبّ المحبوب فيها لذاته ، والعرضية هي التي يُحَبّ
المحبوب فيها لغيره . أما العرضية فمنها محبةُ الاحسان وذلك كمن يحبّ من ٦
أحسنَ إليه وهذا معلوم لا ينكر . وكذلك ما في معنى الاحسان من جلبِ المنافع
ودفعِ المضارّ والاعانة على الأغراض وتيسير المطالب . فالانسان مجبول على
هذه المحبة لأنها مركوزة في طباعه ، وإذ حاصلها يرجع إلى محبته لنفسه التي ٩
جُبِل عليها ولا يُشَكّ أن محبة الانسان لنفسه وكمال وجوده ودوامه أمرٌ
متحقّق ، فجميع ما يُعينه على ذلك من صحة جسمٍ أو صلاح حال أمرٌ
محبوب عنده مندرجٌ في ضمن محبته لنفسه . ومن هنالك كانت محبة الانسان ١٢
لولده لأن فيه نوع خلفٍ منه عند فناء جسده إذ في بقاء النوع ضربٌ من بقاء
الشخص وولد الانسان أقربُ نوعه شَبَهًا به ، ولهذا قالوا : « الولد سرُّ أبيه » ،
فمن أجل هذا كان المحسن محبوبا لأنه مُعين على دوام البقاء الذي هو محبوب . ١٥
قال عليه السلام : « جُبِلت القلوب على حب من أحسن إليها » ، وكذا محبة
الصديق من أجل انه مُعين على جلب المنافع ودفع المضارّ ، وكذلك أيضا
محبة المعلّم لأنه سبب الافادة المكمّلة للوجود الانساني ، ومحبة الطبيب لأنه ١٨
مُعين على حفظ صحة الجسم ودفع المرض عنه ؛ وجميع ما في هذا المعنى . .

فهذه المحبة كلها عرضية، وكلما كانت هذه الصفة المحبوبة في شخص أتمّ وأدوَم كانت محبته لأجلها أدوَم وأكمل ، وبقَدرِ نقصانها فيه تنقص المحبة له .

٣ وقد تتضاعف هذه المحبة باستجماع هذه الخصال كلها في شخصٍ واحد وتُعدَم بعدمها فيه ، ولا يُشَكّ أن هذه المحبة مجازية ، لأن من أحب شخصا لصفةٍ تعود منه عليه فما أحب على الحقيقة إلا نفسه . ومثل هذا يقال فيه انه

٦ محبٌّ لنفسه حقيقةً ولغيره مجازًا ، وليس غرضنا يتعلق بهذه المحبة إذ حاصلها يرجع إلى محبة الاجسام وبقائها، وقصدُنا صرف النفس عن ذلك إلى ما هو أشرف ، فهي ضدّ مقصودنا .

٩ وأما المحبة الذاتية ونعني بها التي تراد لذاتها فهي تنقسم إلى قسمين : أحدهما ما يُعقَل سببه والآخر ما لا يُعقَل له سبب . فالتي لا يعقل لها سببٌ هي محبة المناسبة الخفيّة عن الأذهان ؛ والتي يعقل سببها هي محبة الجمال والكمال

١٢ الذاتيين للمحبوب . وقد انحصر مقصودنا من المحبة إلى ثلاثة أقسام : محبة الجمال ، ومحبة الكمال ، ومحبة المناسبة الروحانية . أما محبة الكمال فهي مزادةٌ للجمال إذ الكمال مظهر للجمال ، وأما محبة المناسبة فهي أيضا خارجةٌ

١٥ عن مقصودنا من السلوك إذ لا يُتوصل إليها بسبب مكتسبٍ وإنما هي شيء وُضع في الجملة بحسب القسمة الأزلية فلا يُفتقر فيها إلى طلبٍ ولا رياضة ، لكنّنا ننبّه على طرف منها من حيث الجملة لأنها إذا وُجدت كانت أشرف أنواع

١٨ المحبة وأدومَها .

(٢/٣) **فصل** : وأما أقسام المحبة بحسب ذاتها فإنها تنقسم بحسب المبادئ والغايات إلى عشرة أقسام: خمسة منها مقامات المحبين السالكين. فأولها الألفة

٢١ ثم الهوى ثم الخلّة ثم الشغف ثم الوجد . وأما مقامات العُشّاق فأولها الغرام ثم الافتتان ثم الولَه ثم الدهش ثم الفناء . واسم المحبة يشتمل على الكل إلا أن المحب لا يخلو إمّا أن يستعمل المحبة أو تستعمله، فإن استعملها وكان له فيها

٢٤ كسبٌ واختيار سُمّي محبًا اصطلاحا ، وان استعملته المحبة بحيث لا يكون

له فيها كسبٌ ولا اختيار ولا نظرٌ لنفسه بما تصلحه فهو عاشق ، فالمحب مُريد والعاشق مُراد .

(٣/٣) **فصل** : وأما الألفة فهي أول مقام من مقامات المحبين ، ومعناها ٣
ايثارُ جانبِ المحبوب على كل مطلوب ومصحوب ويستدعيها الانسان باستقراء
محاسن المحبوب وإدامة الفكرة في لطافة شمائله وما هو عليه من بديع الصنعة
وغريب الحكمة الالهية ، ويتأكد ذلك بملازمة الصحبة وطول العشرة واستماع ٦
الأشعار المرقّقة للطبع التي تُدرَك فيها شمائل المحبوب وتدقيقِ الفكر في
معانيها اللطيفة .

واعلم أن أصل التآلف التعارف الأزلي في عالم الغيب، فمن تحققت نسبته ٩
هنالك ظهرت هنا، إذ العالم الأسفل ظلٌ للعالم الأعلى، وهذه الأشباح أمثلةٌ لتلك
الأرواح، فما من صورة في عالم الشهادة إلا وهي مثالٌ لذات روحانية من عالَم
الغيب، فإذا تحرّكت تلك الحقيقة هنالك لزم أن يتحرّك مثالها هنا، كما أن الظلّ ١٢
تابع للشخص في حركته وسكونه، فالتعارف هنا ثمرة ما هنالك. (من الكامل) :

بيني وبينك ذِمّــةٌ مرعيّةٌ بدأتْ هناك وكان آخرها هنا

وهذه الألفة تكون عموما وخصوصا : أما العموم فهي نسبةٌ تُؤلّف ١٥
جميع الموجودات لاشتراكها كلها في نور الوجود المشرق عليها من مُوجدها
(من الطويل) :

خُلِقتُ ألوفا لو رجعتُ إلى الصِبى لفارقتُ شيبي مُوجَعَ القلب باكيا ١٨

وأما الخصوص فهي التي يوجبها الاشتراك في أخصّ وصف الانسان
وهي المعرفة المعبّر عنها بالايمان المُنتج للمحبة الحاصلة عن النور التامّ ، ولهذا

٧ تدرك : لعله « تذكر»
١٥ تؤلف : في الاصل « تالف »
١٨ ديوان أبي الطيب بشرح العكبري (مصر ١٩٣٦) ٤ / ٢٨٤

كان المؤمنون بهذا الاشتراك الخاص كالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو اشتكى سائره، إذ السرّ القائم بهم واحد فهم شيء واحد بذلك الاعتبار.

٣ (٤/٣) **فصل** : فأمّا مقام الخلّة فمعناها تخلّل شمائل المحبوب روحانيةَ المحب حتى تتكيّفَ بها النفس والروح وسائر الجملة الانسانية فتتحرك أعضاء المحب عن إرادة المحبوب المتحرك بها القلب فتستحيل المخالفة، كما قيل

٦ (من الخفيف) :

وتخلّلتَ مسلك الروح مني ولذا سُمّيَ الخليلُ خليــلا
فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثي وإذا ما سكتُّ كنتَ الغليلا

٩ ولهذا قال عليه السلام: «المرء على دين خليله». يعني أن الذي أشرق في هذا من النور الإلهي هو الذي أشرق في الآخر لاتحاد محلّهما فكان دينهما واحداً أي مطلوبهما وفهمهما الذي يُدركان به الحقائق واحدا، ولا يكون هذا

١٢ التخلّل إلا تابعا للصفاء والخلوص الذي معناه زوال العوارض الزائدة عن الذوات حتى تبقى مجرّدةً واحدة فتنطبع فيها صورة الوجود الكلي.

(٥/٣) **فصل** : وأما مقام الهوى فمعناه ميل القلب بالكلية إلى وجهة

١٥ المحبوب والإعراض عمّا سواه وتجريد القصد له في كل حين وصرف الهمة إليه، وفيه تستحكم المحبة وتشتدّ صورتها وينبسط سلطانها ويستولي لاعج الشوق. ثم إن الهوى وإن كان وضعا لازما للمحبّ فهو يتجدّد بتجدّد النظرات

١٨ إلى الصور الجميلة، والمحاسن الرائقة النبيلة، والشمائل اللطيفة المعاني، وفتور الألحاظ الذي يُلحق الطليق بالعاني، فيجلبُ له الهوى من كل صَوْب،

....

٧ – ٨ وتخللت البيتين: الأول في الفتوحات المكية ٢/٢٢ و ٣٦٢، ٤/٤٠٤ [وتخللت: قد تخللت ٢/٢٢]

١٩ صوب : في الأصل «صوت»

ويجدّد له الأشواق من كل ناحية وأوب، فهو رهين غرام ، وأسير سقام .
(من الطويل) :

عيونُ المَها بين الرُّصَافةِ والجِسْرِ جلبْنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري ٣
أعَدْنَ ليَ الشوقَ القديمَ ولم أكن سلوتُ ولكن زِدنَ جمرا إلى جمرِ

فالهوى سُلطانه يستعبد الأرواح والأجساد ، وتنقاد لعزّته القلوب غاية
الانقياد ، فلا يبقى له معها اختيار ولا مُراد ، ولا يصحّ الاتّصاف بالهوى ٦
إلا لمن خرج عن هواه ، وآثر طاعة حبيبه على ما سواه ، فلا يسمع إلا منه ،
ولا يتحدث إلا عنه .

رُوي أن بعض أصحاب الأحوال سمع قارئا يقرأ: ﴿ أفرأيت من اتخذ ٩
إلهه هواه وأضلّه الله على علمٍ وختَم علَى سمعه وقلبه وجعل على بصره غِشاوةً
فمن يهديه من بعد الله﴾ (٤٥«الجاثية»٢٣) فغُشي عليه ، فلما أفاق سُئل عن حاله
الذي استولى عليه من معنى هذه الآية فقال : قوله ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه ١٢
هواه ﴾ أي ليس له هوًى إلا إلهه فهو هواه ، وقوله ﴿ وأضله الله على علم ﴾
أي ضلّ في حبّه لربّه على علم منه به ومعرفة فهو في ذلك على يقين . ولهذا
قيل ليعقوب عليه السلام: ﴿إنك لفي ضلالك القديم﴾ (١٢«يوسف»٩٥) أي ١٥
في حبك القديم ، وقولُه ﴿ وختم على سمعه وقلبه﴾ يعني بخاتم الغيرة فلا يسمع
إلا كلام محبوبه ولا يجد في قلبه موجودا غيره ، ﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾
أي لا يشاهد إلا ذاته ولا يرى سواه ، ﴿ فمن يهديه من بعد الله ﴾ اي ان ١٨
عدم الهُدَى من الله فممن يطلبه . فهذا تأويل يدقّ على الأفهام معانيه ،
إذ كل إناء يترشّح بما فيه . (من الطويل) :

إذا ما رأتْك العينُ من بُعد غايةٍ وعارضَ فيك الشكُّ أثبتك القلبُ ٢١

....

٣ المها : في الأصل « المهى »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦/٣

ولو أنّ رَكبا يَمّموك لَقـــادهم جمالُك حتى يستدلّ بك الركبُ

وأساليب الهوى وفنونه كثيرة لا يشتمل عليها كتاب ، ولا تحيط بها
٣ عبارة ولا خطاب .

(٦/٣) **فصل** : فأما مقام الشَغَف وهو الكَلَف والولوع بالمحبوب ،
وهو عند أهل اللسان العرفي بلوغ الحب إلى شغاف القلب أي أصله . وليس
٦ القلب في الحقيقة هذا الشكل الصنوبري الذي تحيط به الأضلاع ، كما هو
للبهيمة ، ولكن القلب سرّ الانسان ومحلّ اطّلاع الربّ الذي لا تحيط به
الأجسام .

٩ وإذا تقرر أن بين العبارات والمعاني المعبّر عنها مناسبة وعلمنا أن شغاف
القلب أصله وأصلُ القلب الحقيقي عالَم النور الإلهي الذي هو معدن المحبة
والمعرفة فإذا بلغت المحبة بصاحبها إلى هذا العالم النوراني والحِمَى الإلهي الذي
١٢ لا يصل إليه إلا من اختصّه الحق تعالى بعنايته، وأباحه حرم حرمته، وجناب
جلاله وعظمته (من الطويل) :

أباحتْ حِمًى لم يَرْعَهُ الناس قبلها وحلّت تِلاعا لم تكن قبلُ حُلّتِ
١٥ هنيئا مريئا غيرَ داءٍ مُخَامِرٍ لِعَزّةَ من أعراضنا ما استحلّتِ

فعلى هذا الحِمى تُسكَب العبرات ، وتتصاعد الزفرات ، وإليه تحنّ
النفوس القدسية ، والأرواح اللطيفة الربانية ، حنينَ الغريب إلى أوطانه ،

---

١ (ص٣٤س٢١)إذا الخ : البيتان لعبد الله بن محمد بن البواب، الأغاني ٢٠/٢٤ والرواية فيهاهكذا :

إذا أبصرتك العين من بعد غاية وأوقعت شكا فيك أثبتك القلب
ولو أن ركبا يمنوك لقـــادهم نسيمك حتى يستدل بك الركب

١٤ أباحت البيت : ديوان كثير عزة ٤٤/١

١٥ هنيئا البيت : ديوان كثير عزة ٤٩/١

٧/٣

والمحب إلى ألافه وأحدانه . (من الطويل) :

تمُرّ الصَّبَا صفحا بساكنِ ذي الغضا ويصدع قلبي حين هبّت هبوبُها
قريبة عهـدٍ بالحبيب وإنمـا هوى كل نفسٍ حيث حلّ حبيبُها ٣

فالعاشق يحنّ إلى هذا الموطن الجليل، وينجذب جملةً إلى ظلّه الظليل، ونَسيمِه العليل، وورودِ منهله السلسبيل ، فلا يشيم البرق إلا لأنه يأتي من ذلك الجناب الرفيع ، ويُخبر عن سرّ جماله البديع ، فلهذا كان لمَعَانُ ٦ البروق ، يقطع بالشوق أفلاذ كبد المشوق . (من الطويل) :

رأى البرقَ مجتازًا فبات بلا لُبِّ وأصباه من ذكر المليحة ما يُصبي
وقد عاج في اطلالها غيرَ مُمْسِكٍ لدمعٍ ولا مُصغٍ إلى عَذَلِ الركبِ ٩
وكنتُ جديرًا حين أعرف منزلا لآل سُليمى أن يُعنّفني صحبي
عَدَتنا عوادي البُعد عنها وزادنا بها كَلَفاً أن الوَداع على عتْبِ
وبي ظَمَأٌ لا يعرف الماءُ دَفْعَهُ إلى نهلةٍ من ريقها الخصِر العذبِ ١٢

(٧/٣) **فصل** : وأما مقام الوجد فمعناه وجود ذات المحبوب وسائر صفاته الحقيقية منطبعةً في ذات المحبّ انطباعا ثابتا بحيث لا يمكن زواله ، ولا يُتصوّر انفصاله ، وإذا بلغ المحبّ إلى هذا الحدّ فقد ذهب عنه الكسب ١٥ والاختيار ، واستوى في حقه الاعلان والإسرار ، ودخل في أودية المحبة ، وسكر من صفو مدامها سكرا دوامُه بدوامها إلى أن صار السكر يهيم به في كل واد ، ويسلك به في الاغوار والانجاد ، لا يقرّ قراره ، ولا يطمئنّ به ١٨

٢ تمر الخ : البيتان لمجنون العامري ، الأغاني (الدار) ٢/٨٥ [حين هبت : ان يهب – الأغاني
٣ حل : كان – الأغاني]

٨/٣

دارُه . (من الكامل) :

خُذْ نُصْحَ قولي في المحبة أو دَعِ إن لم تَمُتْ وَجْداً فإنّك مُدّعي

٣ ليس الغرام نُحولَ جسمك دائما كَلّاً ولا طول البكا بالأدمُعِ

الحبّ مــا أفناك منه قليلُــه فذهِلتَ حتى لا تُجيب ولا تَعي

(٨/٣) ثم إن المحب إذا تحقق في مقام وَجدِ الموجود ، وظهرت عليه

٦ آثار الشهود ، يشهد محبوبه في سائر الذوات ، وصفاته مع سائر الصفات ، فلا يرى الوجود سواها ولا يراها سواه ، وإذا نظر نظرا قويما ، وسلك في الاعتبار طريقا مستقيما ، رأى الكل في ضمن حقيقته الإلهية ، وبلغ إلى مقام

٩ الفردانية . (من الطويل) :

وطَارَحَنِي غُنجُ اللحاظ معانياً أغارُ عليها أنْ تُلِمّ بمسمعي

فكرّرتُ طرفي في الوجود بأسْرِه فلم أرَ فيه غيرَ معناك مُقنعي

١٢ وطالعتُ في سرّ الهوى فإذا التي أطوف عليها في معالمها معي

وهذه العبارة إنما هي بحسب الاعتبارات وما توجبه الأحوال من الجمع والافتراق ، إذ الحقيقة تجمعُ والحق يفرق ، فاذا غلبت على المحب الغيبَةُ في

١٥ الشهود ، ذهب عن خاطره حقيقةُ الوجود ، فلم يَرَ غير مشهوده ، لفنائه عن رسومه وحدوده ، وإذا رجع إلى النظر إلى ذاته ، واختلاف أحواله وصفاته ، غلبتْ عليه أشعّة الجلال ، فيرى ذاته مفتقرة على كل حال .

١٨ وهذا هو آخر مقامات المحبّين وأول مقامات العُشّاق الذين أسكرهم شراب القُرب ، وغابوا عن ذواتهم في شهود الربّ ، سُلبوا عن اختيارهم وإرادتهم ، وأُخرجوا في المحبة عن مُستقرّ عادتهم . (من البسيط) :

٢١ سَعَوا إلى الراحِ مَشْيَ الرُّخِّ وانصرفوا والراحُ يَسعَى بهم سَعي الفرازينِ

٩/٣

لله دَرُّهُمُ من فتيةٍ بَكَرُوا مِثْلَ الملوك وراحوا كالمجانينِ

يعني أنهم لما سلكوا طريق المحبة سَعَوا سَعْيَ الرخ أي على استقامة لأنها أقربُ الطُرُق، وعند شربهم من مورد المحبة وسُكرهم صَدروا عنه وسَيْرُهم سَيْرُ الفرازين أي على غير استقامة، فلأن من لا يدبّر نفسه إنما يسير كيف اتفق له، فإن حركته غير إرادية. فسُمّي حالة المحبة قبل السكر محبةً وبعده عشقا. ٣

(٩/٣) **فأما العشق** فأول مقاماته الغرام وهو الانتشاء من خمر المحبة، ثم الافتتان وهو خلع العذار، وعدم المبالاة بالخلق؛ ثم الوَلَه وهو مقام الحيرة، ثم الدهَش وهو الذهول، ثم الفناء عن رؤية النفس وهو أن يكون العاشق لا يسمع إلا بمحبوبه ولا يُبصر إلا به، ولا يدرك إلا به وله، ومنه فناءٌ به عن نفسه وعن الأشياء. (من الوافر): ٦ ٩

مساكين المحبّين الحيارَى تراهم مُطلَقين وهم أسارَى
وتحسبُهم صُحاةً من مُدامٍ وهم من خمر عشقهمُ سُكارى ١٢
إذا ذُكر الحمى حنّوا إليه بأرواحٍ مولّهةٍ حيارَى
لقد سَكن الهوى لهمُ قلوبا وقرّبَها فأعدمها القرارا

وأرباب هذه المقامات يتفاوتون فيها بحسب كمال الادراك والذوق. وقد كان يمكننا أن نشرح مقامات المحبة هذه بشرحٍ يبيّن حقيقتها، لكن رأينا ذلك يستدعي تطويلا يُخرجنا عمّا قصدناه من الاختصار. وأما مقامات العشق فهي أعظم من أن تتناولها عبارة، أو تقع نحوها اشارة، وإنما تؤخذ على الاجمال، وعند وصول السالك إليها يفصّلها له ذوقُه تفصيلا لا يفصّله القول، وإذا كانت محبّة الجمال والكمال هي مقصودنا فيما نورده فلنشرح حقيقتها كما يجب بعون الله تعالى. ١٥ ١٨ ٢١

الباب الرابع

في معنى الجمال والكمال على ما يعطيه المقال

وفيه فصلان

٣

(١/٤) **الفصل الاول** في معنى الكمال ، وبدأنا به لأنه سرٌّ في وجود الجمال فنقول : أما الكمال فمعناه حضور جميع الصفات المحمودة للشيء وهو ينقسم إلى ظاهرٍ وباطن .

٦

أما الظاهر فهو اجتماع محاسن صفات الأجسام اللائقة بها وهو يختلف باختلاف الذوات ، فكمال كل شيء بحسب ما يليق به ، فالذي يكمل به شيء غير الذي يكمل به شيء غيره ، فإن الصفات التي تُكمّل ذات الانسان غير التي تُكمّل ذات الحيوان ، والتي يكمل بها الحيوان غير التي يكمل بها النبات ، ولذلك الذي يُكمّل جنسا من الأجناس غيرُ الذي يُكمّل الجنس الآخر حتى ان الذي يُكمّل عضوا من أعضاء البدن غيرُ الذي يكمّل العضو الآخر .

٩

١٢

فكمال صورة الانسان الظاهرة في تناسب أعضائها واعتدال مزاجها وامتزاج البياض والحمرة في لونها ورقّة بشَرتها وغير ذلك ، وكمال الفرس في قبوله لما يراد منه من الكرّ والفرّ وحسن تأديبه لكي يتمّ المقصود منه ، وكمال النبات غضارته ونضارته وبدائع أزهاره واختلاف ألوان نُوّاره ، وكمال الصوت في رخامته وعذوبته ، وكمالات الأجسام كثيرة . فهذا هو الكمال الظاهر والنفوس تتأثر به لأنه مظهر الجمال المحبوب بالطبع الروحاني والنفساني ، إذ الانسان

١٥

١٨

....

١٢ العضو : في الهامش وأول الكلمة مقطوع

السليم من الآفات يحبّ الصورة الحسنة الخلق وينفر عن الصورة المشوّهة المنكوسة أو التي فيها نقصٌ أو شينٌ . والحواسّ التي هي رسل النفس إلى الجمال المبدّد على صفحات الموجودات تستريح إلى رؤية الماء الصافي ٣ والأزهار المونقة والأرايح الطيّبة والأصوات الرخمة والنغمات الموزونة حتى إنّ إدراك لذّة هذه الأشياء تُذهب الحزن وتُفرّح القلب وتبسط الأمل وتُسلي الهموم للمناسبة التي بين النفس وبين الاعتدال والصفاء والنور ومضادّة ٦ طبعها للظلمة والكدرة . فأما تأثير الألحان والأنغام الموزونة فيعظم وقوعه في النفوس حتى إنّه يتعدّى إلى أرواح الحيوان غير الناطق ، فإنّا نجد الجمل على غِلَظ طباعه يحمل الأثقال العظيمة فإذا سمع صوت الحُداة قطع المسافة ٩ الطويلة في الزمن القصير ، وكذلك الطيور تطرب لحسن النغم ؛ والطفل الرضيع يسكن ضجَرُه عند التلحين ويهدأ كربه وينام . ويكفي في ذلك ما يُحكى عن الآلة المسمّاة بالأرغن وتأثيرها في النفوس من الأخلاق المختلفة . فميل ١٢ النفوس إلى هذه الأمور المناسبة لها أمرٌ طبيعيّ فيها لا يُنكَر ومحبتها لها إنما هي لذاتها لكونها مظهرا للجمال ، فإن قارنتْ هذه اللذة لذة أخرى مثل مقارنة لذة النظر إلى الصور الجميلة الآدمية شهوة النكاح ، فإنما تلك الشهوة عن ١٥ باعث آخر من الطبع الحيواني ، إذ شهوة النكاح مغايرة للذة الادراك النفساني ، والباعثُ على هذه غير الباعث على تلك ، فإن النفوس لما كانت ثلاثة أجناس: نباتية وحيوانية وإنسانية ، فلذة النباتية في المطعم والمشرب ، ولذة الحيوانية ١٨ في المنكح وفي موجبات الغضب من التشفّي والانتقام والرياسة ، ولذة النفس الإلهية في تحصيل المعارف الربّانية والانتعاش بالعلوم الدينية والقرب من الحقّ تعالى ومحبته . فالانسان على هذا يجانس النبات بالنفس النباتية والحيوان بالنفس ٢١ الحيوانية والملائكة بالنفس الإلهية .

(٢/٤) ولما كانت هذه القوى الثلاث في الانسان متغايرة كانت لذاتها أيضا متغايرة على ما قلناه . ومما يدلّ على اختلاف البواعث على هذه اللذات ٢٤

أنّا نجد الحمار مثلا إنما ينكح لدفع الفضلة المجتمعة فيه لا لأجل حسن صورة المنكوح عنده ، فإن البهيمة لا تفرق في نكاحها بين الصورة الحسنة والقبيحة ،
٣ وكثير من الناس لا ينكح إلا لتحصيل الولد وآخرون لمحض اللذّة لا غير ، وهو الأكثر ، والعارف ليتخذ هذه اللذة سُلّما لفهم اللذات الأخروية للمناسبة الروحانية التي بينهما حتى يفهم تلك اللذة من ذاته، وبهذا القصد تخرج
٦ هذه اللذة عن صورتها الظاهرة وتصير من الكمالات ، وقد يوجد في الناس من يفقد شهوة الجماع البتة ولا يفقد شهوة النظر إلى الصورة الجميلة وبالضدّ كالبهائم . فدلّ على تغاير الشهوتين . وأيضا فإن الذي يلتذّ بالنظر إلى الأزهار
٩ الأنيقة والرياض الأريضة والمياه الصافية والنقوش المزخرفة لا يحبّ نفسها ولا يحبّها إلاّ لمجرّد لذة النفس بالنظر إليها لا غير ، فإن كون هذه الأشياء على غاية اعتدال صورتها الظاهرة كمالٌ لها والكمال محبوب بالجبلّة لا يُنكَر
١٢ ذلك ولا يُدفَع .

(٤/٣) **فصل** : وأما الكمال الباطن فمعناه اجتماع الصفات الفاضلة في الإنسان على اعتدالها وتطبّعه بها ، والصفات الفاضلة العقلية كثيرة ولكن
١٥ أمّهاتها أربع وهي : الحكمة ، والعفّة ، والشجاعة ، والعدالة . فمن هذه الصفات تفرّعت سائر الفضائل المكمّلة لذات الانسان ، ولا يكمل الانسان إلا باجتماعها فيه كاملةً ، ولا تكمل هي في نفسها إلاّ باعتدالها ، واعتدالها
١٨ بكونها تجري على قوانين الشرع المؤيّد لقضايا العقل ، إذ بالشرع تكمل محاسن الأخلاق كما قال صلى الله عليه وسلم: « إنما بُعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق »، فالحكمة فضيلة القوة العقلية وكمالها بالعلم ، ويندرج تحتها حسن التدبير وثقافة
٢١ الرأي وصواب الظنّ . ثم الشجاعة فضيلة القوة الغضبية وكمالها بالمجاهدة ، ويندرج تحتها كبر النفس والاحتمال والحلم والكرم والنجدة والوقار

٤ الاكثر : مستدرك في الهامش وصدر الكلمة مقطوع

ثم العفة فضيلة القوة الشهوانية وكمالها الورع ، ويندرج تحتها الوقي[1] والحياء والخجل والسماحة والصبر والسخاء والانبساط والقناعة . ثم العدالة عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب وكمالها بالانصاف ، ويندرج تحتها جميع الفضائل التي ينقام بها وجود العالم كله . ٣

وحاصل هذه الكمالات كلها يرجع إلى كمال العلم والقدرة أعني العلم بفضل هذه الأخلاق والقدرة على استعمالها . فالكامل إذاً هو الذي يحيط علما بهذه الأخلاق ويستعملها . ٦

(٤/٤) **الفصل الثاني** في الجمال وحقيقته ، وهو ينقسم على قسمين مطلق ومقيد . أما المطلق فهو الذي يستحقه الحق تعالى وينفرد به دون خلقه فلا يشاركه فيه مخلوق ، وهذا هو الجمال الإلهي جل عن تمثيل وتكييف وتشبيه أو وصف حقيقة ، عجز الأولون والآخرون عن إدراك كنه ذاته ، فلا يدركه غيره ولا يعلمه سواه ، وإنما حظ الخلائق منه عجزهم عنه . ولهذا قال الصديق الأكبر : « سبحان من لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، تعالت سبحاته أن تدرك بسواه ، وعزت قسماته أن ينال جانب عزها بسبب حاشاه . » ٩ ١٢ ١٥

(٤/٥) وأما الجمال المقيد فإنه ينقسم إلى كلي وجزءي . أما الكلي فهو نور قدسي فائض من جمال الحضرة الإلهية سرى في سائر الموجودات علوا وسفلا باطنا وظاهرا . فأول إشراقه على عالم الملكوت، ثم على عالم الجبروت وهو عالم النفوس الانسانية، ثم على القوى الحيوانية ثم النباتية، ثم على سائر أجسام العالم السفلي على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها ، فما من ذرة من العالم إلا وقد أشرق عليها من هذا النور الإلهي والجمال القدسي بقدر ١٨ ٢١

---

١ الوقي : في الاصل « الوفي »

احتمالها ؛ لكن قبول الأشياء له بقدر العناية الأزلية ، ولولا ذلك لم يكن
للأشياء ظهور . فإنّ هذا هو سرّ الوجود وبه ظهر ، ولو فُرض عدمُه
٣ لم يكن موجودا في العالم ، وهو أظهر الأشياء فلا أظهر منه ، ولا يُدرَك إلا
بنور العقل . وكما أن نور الشمس به ظهرت الألوان والأشكال والصور
ولولاه لم تَظهر للحسّ فهو شيء زائد عليها . فالقاصر النظر إذا شاهد صورة
٦ الأشياء يعتقد أنْ ليس معها شيء زائد عليها ويُنكر هذا النور الذي به ظهرت
حتى أدركها الحسّ . فإذا ذهب ذلك النور وعدمت صورة الأشياء من
البصر حينئذ يتفطّن أن النور كان سبب ظهورها وإنما خفي لشدة ظهوره .

٩ فكذلك الجمال الكلي لم يخلُ عنه موجود ، لكن لا يدركه على الحقيقة
إلا من كانت ذاته كلية ، كما أن من كانت ذاته جزءية لا يدرك إلا الجمال
الجزءي . والكلّي الذات هو الذي تُناسب ذاته جميع الذوات فيكون كلّها
١٢ وتكون كلّه ؛ وذلك أن العارف لما ناسب الأشياء كلها بما له معها من
الاشتراك في النور الالهي الذي لم يخل عنه موجود لم ير ذاته شيئا غير ذلك النور ،
وكذلك سائر الأشياء لا يراها شيئا إلا ذلك أو لا يرى لها من ذاتها سوى العدم
١٥ المحض ، وإنما الوجود لها من ذلك النور ويراه مع هذا شيئا واحدا فيعلم يقينا
أنه هو ذلك النور الواحد الذي غمر سائر الأشياء فكان كلّها وكانت كلّه.
(من البسيط) :

١٨ يا جملةَ الكلّ لستَ غيري فما اعتذاري إذًا إليّا

ثم انه يفنى عن الكلّ برؤية موجد الكلّ ، ولا يصح هذا إلا لمن
كان الحق تعالى سَمْعَه وبصره إذ لا يشهد الكلَّ إلا الكلُّ .

....

١٣ ير : في الاصل « تر »
١٩ موجد : في الاصل « موجود »

٤/٦–٧

وهذا كلامٌ لا يفهمه إلا أربابه الذين وصلوا إليه بالذوق ، وحرامٌ الخوض فيه مع المتثبّطين في عالم الأجسام المظلمة المانعة من اللحوق بعالم النور. (من الطويل) : ٣

إذا كنتَ كرسيًّا وعرشا وجنّةً ونارا وأفلاكا تدور وأملاكا
وكنتَ من السرّ المَصون سريرةً وأدركتَ هذا بالحقيقة إدراكا
فكمْ ذا التأنّي في الحضيض تثبُّطا إلى كمْ مع الاسرى أما حان إسراكا ٦

(٤/٦) **فصل** : وأما الجمال الجزءي فهو نورٌ علويّ يسنح للنفس الانسانية عند إدراك الصورة الجميلة الحاصلة في لوح الخيال المنتقش بقلم الحس البصري تتهيّج به فتستعدّ بذلك الابتهاج لقبول إشراق نور آخر أشدّ روحانيةً منه ٩ من عالم الأنوار المقدّسة ، إذ النور يستدعي النور فينجذب إليه للمناسبة بينهما . فذلك الابتهاج هو المعبَّر عنه بالمحبّة التي تُفضي بالنفس إلى العشق وإلا فليس في قوى الأجسام ما يؤثّر في النفس الانسانية ذلك التأثيرَ ، إذ لا يفعل الكثيف ١٢ في اللطيف .

(٤/٧) وهذا الجمال من حيث الجملة ينقسم إلى ظاهر وباطن . فالظاهر منه ما يتعلق بالأجسام فلا يُدرَك إلا معها ، والباطن ما لا علاقة له معها ، ١٥ وهو الجمال العقلي المجرد . والجمال الظاهر وإن كان له تعلّقٌ بظاهر الجسم فهو منزّهٌ عن الحلول فيه ، وإنما معناه تجلّي نفسٍ انسانية وإشراقُها على بدنها بأنوار الجمال ولا يُدرَك مجرّدا بالحواسّ وإنما يُدرَك بنور العقل لدقّة ١٨ معناه ولطافته ، فإن العقل نور والجمال نور ، فلا يُدرَك النور إلا بالنور ، والحواسّ إنما هي قُوَى النفس الحيوانية وهي جسمانية فلا تُدرِك شيئا إلا مع أشكال الجسم وأوضاعه ، وعلى تلك الهيئة يُنقَش المرءيّ في لوح الخيال ، ٢١ فصحّ أن الذي يدركه البصر مظهر الجمال لا ذاته ، لكنّ البصر إذا ودّى

٨/٤

ما أدركه إلى الخيال أدركتِ النفسُ معه روح الجمال مجرّدا عن علائقه وأوضاعه
ونقلته إليها ، فذلك هو الجمال المجرّد الزائد على الجسمية ، وهو الذي يسبي
٣ العقولَ وتتفتّق به الأرواح ، لكنه لا يُدرَك إلا مع صورة الجسم التي هي في
غاية الكمال ، فإن وُجد فيها هذا الكمال وُجد الجمال معه ، وإن عُدم عُدم .
فالكمال مظهر له ومستدعٍ لوجوده. ولذلك كانت النفس تحبّ الكمال ، لأن
٦ الجمال لا يوجد إلا مقارنا له ، كما أن وجود الصورة يكون مقارنا لصفاء
المرءاة .

(٨/٤) ونزيدُك في ذلك بيانا فنقول : إنّا إذا شاهدنا مثلا وجها حسنا
٩ قد تجمّعت فيه صفات الكمال اللائقة به أدركنا بقوة أخرى فينا غير حاسّة
البصر ذات الجمال التي كان الوجه مطلعها إلا أنّا لا نقدر أن نعبّر عن حقيقة
ذلك الجمال المجرّد نُطقاً لدقّة معناه ولا سيما في حين استغراقنا في مشاهدته
١٢ لذهول النفس عن تحرير العبارة عن ذلك ، فقد تضيق العبارة عن وصف
كيفيةِ لذّةٍ محسوسة إذا قصدنا تفهيمها لمن ليست له حاسّة إدراكها ، فلو
سألَنا شخصٌ لم يُخلَق فيه حسّ الذوق قطّ عن طعم الحلاوة واللذّة بها لم
١٥ يمكنّا أن نفهّمه تلك اللذّة أصلا ولا أن نعبّر له عن كيفية حقيقتها عبارةً
توصله إلى علمِ ما جهل منها ، وكذلك العنّين إذا سأل عن حقيقة لذة الوقاع
لم يمكن أيضا أن نوصل حقيقة تلك اللذّة إلى نفسه حتى يجدّها كما يجدُها
١٨ غيره ممن ليس بعنّين ، وكذلك سائر لذّات الحواسّ وآلامها ، لأن العلم
بالأشياء إنما يحصل لنا أوّلا من طريق الحواسّ ، فمن فقدها لم يتوصّل إلى علمٍ
أصلا ، إذ ليس للنفوس أوّلا طريقٌ إلى اقتناص العلوم من خارج غيرُها .
٢١ فإذا عجز الانسان عن أن يُفهّم لذّةَ حاسّةٍ لمن لم تكن له تلك الحاسّة فكيف
يمكن أن يُفهّم لذة المعقول من الجمال لمن لم يدرك ذلك من نفسه مع كونه
لا يُدرَك إلا بحاسّة الحواسّ وهي النفس . ولهذا لمّا دقّ معنىً جمال العيون

٢١ عن ان : في الاصل « عن »

النُّجْل عند من أراد أنْ يعبّر عنه سمّاه مرّةً سحرا ومرةً سهما ومرّةً سيفا لدقّة معنى السحر ونفوذه في النفوس والأجسام ودقّة معنى السكر الحادث عن الخمر وتخلّله أجزاء الروح وقُوَى البدن الحسّاسة وحصولِ الموت ٣ بالنظر كما يحصل عن السهم والسيف، وقيل (من البسيط) :

إنّ العيونَ التي في طرفِها مرَضٌ   يقتلننا ثمّ لمْ يُحْيِينَ قتلانـا
يصرّعن ذا اللبّ حتى لا حرَاكَ له   وهنّ أضْعفُ خلقِ الله أرْكانا ٦

يعني أن جوهر هذا العضو لا يفعل بمجرّده هذا التأثير كله في النفس الانسانية على ضعف أركانه وانما يفعله بشيء زائد على الجسمية وهو سرّ الجمال الذي جوهره مؤثّر في جوهر النفس على ما قدّمناه . ٩

ولهذا لو فرضنا صورة انسانية على أتمّ شكلٍ وأكمل هيئةٍ وألطفها من جسم لا تحلّه الحياة ولا يُشرق عليه نور النفس لم يكن للقلب علاقة بتلك الصورة ولو كانت على أتمّ ما ينبغي من الاحكام ، اللهم إلا أن تكون مُذكرةً ١٢ بجمال من هي مثال له من الذوات الحيّة الجميلة . (من الطويل) :

وقد قُلتما لي ليسَ في الأرض جنّةٌ   أما هذه فوْقَ الركائبِ حُورها
يقولُ خليلي والظّباءُ سَوانحٌ   أهذا الذي تهوَى فقلتُ نظيرُهـا ١٥
لَئِنْ شابَهَتْ أجْيادُها وعيونُها   لقد خالَفَتْ أعْجازُها وصدورُها
أراكَ الحِمى! قُلْ لي بأيّ وسيلةٍ   توَسّلْتَ حتى قبّلَتْكَ ثغورُها

---

٥ مرض: ويروى «حور» || يقتلننا – صلب الأصل: قتلننا – هامش الأصل والديوان والأغاني. والبيتان لجرير ، شرح ديوان جرير جمعه محمد اسماعيل عبد الله الصاوي .(مصر ١٣٥٤/١٩٣٥) ص ٥٩٥ والأول في الأغاني (الشنقيطي) ١١٢/٣ و ٣٧/٧ وكلاهما في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري (مصر ١٣٥٢) ٢٣٥/١

٩ جوهره : في الأصل « مُؤثّر جوهره »

٩/٤

فقد صحّ أن الجمال الظاهر هو المعنى اللائح على الهياكل الانسانية التي في غاية كمال الشكل وتمام الهيئة .

٣ (٩/٤) **فصل** : وأما الجمال الباطن فهو ما تفيده الأنوار القدسية الإلهية إذا أشرقت على العقول الزكية من الاتصاف بأنواع العلوم الدينية وأسرار المعارف الربّانية المؤدّية إلى المحبة الحقيقية وسائر الكمالات والفضائل .

٦ ولا يُدرِكُ هذا الجمال إلا العقولُ التي هي في غاية الصفاء المستنيرة من أنوار الله التي تكون سببا لحصول محبّة الحق تعالى بجملة القلب . فإذا تجلّى هذا الجمال القدسيّ من الأفق الأعلى على القلب المطهَّر عن نجاسة الطبع وشاهدته

٩ النفوس في ذاتها ابتهجت به ابتهاجا شديدا ، وحصل لها بتلك المشاهدة لذّةٌ لا تُقاس بها لذّات الحواسّ ، فإن لذّات الحواسّ إنما كمالها بحسب كمال الحاسّة التي بها أُدركت ، وكمال الحواسّ بحسب صفاء مادّتها من الروح

١٢ الحيواني الذي هو قوة الجسم . وكما لا نسبة بين قوى الجسم ونور العقل فكذلك لا نسبة بين لذّات الحواسّ ولذّات العقل ، فإن الحواسّ إنما تُدرِك بإشراق نور النفس الحيواني عليها ، والنفس الحيوانية إنما تُدرِك بإشراق نور النفس

١٥ الانسانية ، والانسانية بإشراق نور العقل عليها ، والكلّ يستمدّ نوره من نور الحقّ تعالى ، فلذّات الحواسّ على هذا لا يقع ذرّةً من لذّات عالم العقل، وكما أن لذة المُلك والاستيلاء على الأقاليم وقهر الأعداء ونصر الأولياء عند من

١٨ توفّرت دواعي نفسه النزوعية أعظمُ من لذة المطعم والمشرب والمنكح لأنّه يترك هذه لها ، فكذلك لذة الجمال العقلي عند من توفّر حظّه من كمال العقل أعظمُ من سائر لذّات الحسّ وسائر لذّات القوى الحيوانية، بل العقل إذا كمل

٢١ لا يستحسن لذّات الأجسام المظلمة ولا يركن إليها لخسّتها عنده وعدم بقائها بل يتأذّى بها لكونها حجابا له عن رؤية الحقائق الإلهية ، والنفوس الفاضلة بطبعها أميَلُ إلى قبول الصور الروحانية من الصور الجسمانية ما دامت على

٢٤ اعتدالها ولم تتسلط عليها الأوهام، فإنّ غلبة الوهم تحيل النفس عن اعتدالها حتّى

١٠/٤

تستحسن لذة الأجسام وتركن إليها وتعمى عن رؤية الحقائق ، مثل المريض
إذا فسد مزاجه فإنّه لا يستلذّ باللذيذ ولا ينفر طبعه عن البشيع لمرض حسّه .
ومن أنكر اللذات العقلية فقد عدم البصيرة الباطنة كما أنّ من أنكر جمال الصور ٣
الجسمية فقد عدم البصر ، وهو كالعنّين إذا أنكر لذة الوقاع .

(١٠/٤) **تنبيه** واعتراض . لك أن تقول : إنّا نجد كلّ ذي حسّ من
الناس تتأثّر نفسه بمشاهدة الجمال الظاهر ونعلم أن ذلك فيهم غريزي ، وربّما ٦
ودّى كثيرا من الناس إلى إفراط المحبة الذي هو العشق فبلغ بهم إلى إتلاف
النفوس ، وأما الجمال الباطن فليس له هذا التأثير العظيم عند الأكثر .

فاعلم أن الجمال الظاهر يُتوصّل إلى إدراكه بطريق الحواسّ وتوسّطها ، ٩
وهي لكلّ حيوان ، سواء كان عاقلا أو غير عاقل ، حتى إن الحواسّ الباطنة
توجد في البهيمة إلا قوة الفكر فإنّه آلة العقل لا غير ، والجمال العقلي لا
يُتوصّل اليه إلا بصفاء العقل الإلهي وهذا لا يوجد لكلّ الناس ، فلذلك لا يعقله ١٢
من الناس ولا يدركه إلا القليل ، ومن وصل اليه يجد فيه من اللذة ما لا يجده
مُدرك الجمال الظاهر مما لا يُقاس ولا يُحدّ . ولهذا نجد من الناس مَن
يحبّ الأنبياء والعلماء والفضلاء وذوي الأخلاق الكريمة وليس ذلك إلا لما ١٥
يعتقد فيهم من كمال صفاتهم الفاضلة الجميلة من قربهم من الله تعالى ومحبتهم
له ، فيتعصّب لهم من أجل ذلك تعصبا يُفضي به إلى بذل مُهجته وأهله وماله
وسائر نفائسه في محبتهم ونُصرتهم والذبّ عنهم وعن مذاهبهم ، هذه حال ١٨
من ظنّ بهم هذا الكمال من العوامّ فاعتقده ، فكيف تكون لذة مَن علم كمال
أحوالهم بالبراهين اليقينية وأدرك الجمال العقلي المقرون به ! فأين تكون لذة
هؤلاء ممن تقدم ! وأين يكون ذلك من لذة من أدرك هذه الكمالات من ٢١
نفسه وتطبّع بها وصارت له ملكة ! فهل يقاس لذة نفسه بنفسه إلى لذة شيء

....

١٤ نجد : في الأصل « نجد كثير »

مما ذكرناه ؛ وكثير ممن يحبّ العلماء والأفاضل من الناس وهو لا يدري هل كانت صورهم الجسمية حسنة أو قبيحة ، إذ لم يحبّ منهم إلا الصورة ٣ الباطنة، ومن هنا كانت محبة الملائكة لقربهم من الله تعالى ومحبتهم له . وقد نجد من الناس مَن يحبّ من هو دون هؤلاء رتبةً كحاتم الطائي فإن القلوب تحبّه لما انتشر من جوده وسماحته ، وتحبّ عمرو بن معدي كرب لما اشتهر ٦ من شجاعته، والسموأل لما ذكر من وفائه، والأحنف بن قيس لما نُقل من حلمه وعقله ، ولم يلتفت في هؤلاء المذكورين إلى الصورة الظاهرة وهذا بيّنٌ بنفسه .

(١٠/٤) **تنبيه** : ومن محبة الكمالات الباطنة محبّة العلم ، فإن النفس ٩ تحبّ معلوماتها سواءٌ كانت تلك المعلومات شريفة أو خسيسة ، إلا انه كلما كان المعلوم أشرف كانت لذّة علمه عند مدركه أعظم ، ولا يخلو أحد من لذّة بعلم ، فإنّا نجد الصبي يلتذّ بمعرفة أصناف اللعب ويفرح إذا نُسب إلى ١٢ النفوذ فيها وتقدّم الأقران في حذقها . وكذلك العالم بصناعة مّا تفرح نفسه إذا انفردت بعلمه بها حتى ان العالم بالشطرنج يبتهج بعلمه به وتشغله لذّته عن الطعام والشراب ويتألم إذا نُسب إلى التقصير فيه ، وكذلك نجد من كان ١٥ عالما بأسرار مُلك مدينة وتدبير مملكته فيها دون غيره يفرح بمعرفته تلك واطّلاعه على أحوال ذلك الملك ، فإن كان عالما بأسرار ملك اقليم وتدبير أقطاره اشتدّت لذته وعظمت ، فإن اطلع على أسرار مُلك الأرض كلها ١٨ لم توازن لذّته بذلك لذةٌ لاستحقاقه لتلك الرتبة وصلاحه لها ، فكيف تكون لذة مَن عرف الله تعالى مالك الوجود بأسره، وملائكته وكيفية وجود الأشياء بقدرته وما انطوى عليه العالم من أسرار القدرة وبدائع الحكمة على الكشف ٢١ والوضوح؟ هل تصل إلى هذه اللذة لذّةٌ أو إلى لذته بنفسه من كونه هو ذلك العارف ، أو يخطر ذلك على قلب بشر ؟

....

٣ نجد : في الأصل « نجد كثير »

(١١/٤) حُكي أن بعض العارفين سمع قارئا يقرأ : ﴿ قالوا جزاؤه من وُجد في رحله فهو جزاؤه ﴾ (١٢« يوسف » ٧٥) فغُشي عليه، فلما أفاق سُئل عن حقيقة ما فهِم من هذه الآية فقال: جزاء من وُجد المحبوب في قلبه ٣ كونه موجوداً في قلبه وهل يوجد جزاءٌ للمحبّ أعظم من حصول محبوبه بذاته في ذاته ؟ فهذا نهاية الفهم الدالّة على نهاية الحضور والمشاهدة . (من الطويل) : ٦

أطالعُ في مرآةِ قلبي فلا أرى يلوحُ بها معنىً سواه مصوَّرا
حبيبٌ إذا الوصّافُ في نعتِ حسنه أطال وأنهى القولَ في النّعتِ قصّرا
تجلّى لأسراري فلمّا عرفتُهُ تَحَجّبَ عنّي غَيْرَةً وتنكّرا ٩
ومــا أنا في معنَاهُ أوّل حائرٍ ولا مَن يزيدُ الفكرَ فيه تَعَثّرا
فكلٌّ كمالٍ ليس فيه نَقيصَــةٌ وكلّ حديثٍ ليس عنهُ فمُفترَى
فلولاهُ لم ينطِق لساني بذكره ولولاهُ لم أسمعْ ولولاه لم أرى ١٢
ولولاهُ لم أطرَبْ إذا ذُكِرَ الحِمى ولم أترَنّح للنسيمِ إذا سرَى

(١٢/٤) **إشارة** واعلم أن الجمال الظاهر والباطن إنما يستلذّه الانسان ويفتتن به لأنّه أثرٌ من آثار العالم الأعلى وإنما قبلت منه النفوس الانسانية والصور ١٥ الجسمانية بقدر اعتدالها وصفائها . فالإنسان يحنّ إلى هذا الجمال ما دام محلّه في تدبير نفسه ، فإذا ذهب تدبير النفس الناطقة لبدن الانسان ، والحيوانية لجسم الحيوان ، والنباتية لجسم النبات ، ذهبتْ تلك العلاقة القلبية ، إذ نجد ١٨ النفس تنفُر بطبعها عن جسم الميت ولو كان محبوبَها في حال الحياة، لعلمها أنّه ليس محبوبها الحقيقي بل لا ترى محبوبها إلا الشيء الذي كان يُشرق عليه من العالم العلوي فتنتقل علاقته إلى ذلك المعنى فتقول (من الطويل) : ٢١

١٢/٤

خـَليليّ لا واللهِ ما أنا منْكما إذا عـَلـَمٌ من آل ليلى بدا لِيـَا

وكذلك تنفر النفس أيضا عن جسم النبات إذا ذهبت نضارته وصوّحت
٣ غضارته وانعكست صورته فصار حُطاما، بل تنفر عن الصورة الآدمية إذا
ذهب عنها رونق العقل فأظلمت ، كمن غلب على مزاجه الماليخوليا ولو
كانت تلك الصورة محبوبة قبل ذلك ، وتنفر عن كل صورة ناقصةِ الخلَق
٦ أو مشوَّهة. ولم نشاهد مـَن عشق صورة من حجر أو خشب لعدم إشراق النفس
على هذه الأجسام الذي هو سبب المحبة ؛ وكذلك أيضا لا تـُعشـَق البهائم لعدم
المناسبة بين النفس الانسانية والبهيمية ، وإنما تـُحـَبّ البهائم للمنافع التي تتعلق
٩ بها كما تـُحـَبّ الآلات ، ولا تـَعشـَقُ النفس إلا ذا نفسٍ تجانسها لا مجرّد
الأجسام المظلمة المضادّة للنور الذي هو جوهر النفوس . (من الطويل) :

ولولا مـَعانٍ من جمالكِ تُجتلى وإلا فما حُزْوى وما سفحُ عاقلِ
١٢ أأحبابنا حـَمـّلتُمُ الكونَ بهجةً فأصبحَ أبهى من حُليّ الخلاخلِ
وعـَطـّرْتُمُ أرجاءَهُ بنسيمكم ففاحَ بأذكى من عبير الغلائلِ
فمن أجلِكم أشتاقُ سَلعاً وحاجِرًا وإلا فما لي والرُبا والجنادلِ

١٥ فهذا ما حضـَرنا من القول في حقيقة الجمال والكمال وفيه كفاية لمن
اقتصر عليه .

....

١ خليلي البيت : من شعر مجنون بني عامر الاغاني ٤/٦٩ [ما أنا منكما : ما أملك البكا – الأغاني ‖ من آل : من أرض – الاغاني]

الباب الخامس

في المحبة المعنوية الخفية عن اذهان البرية

(٥/١) ومعناها وجود صفة خاصّية في المحبوب تطابق مثلها من المحبّ تحمله على المحبة، وهذه المحبة دقّ فهمها عن العقل البشري كما دق معنى التعاشق الذي بين حجر المغناطيس والحديد، أما وجودها فالدليل عليه أنّا كثيرا ما نجد شخصين بينهما محبة مفرطة من غير أن نعقل لتلك المحبة سببا ظاهرا فإن الأسباب التي توجب المحبة معلومة وكلها ترجع إما إلى وجود إحسان من المحبوب إلى المحب وإما لكمال المحبوب في ذاته باتصافه بالجمال الظاهر أو الباطن من أجل شغف النفس بحبّ من اتّصف بهذه الصفات التي هي أسباب المحبة . وأما هذه المحبة فليس لها سبب من هذه فلها إذاً أسبابٌ دقّ فهمها عن العقول ، وهي خواصّ في النفوس لا يصل إليها فكرٌ وإن دقّ . ويزعم أهل التنجيم أن سبب ذلك مناسبةٌ توجد بين الكواكب وتشكُّل الفلك بشكل مخصوص عند مولِدَي الشخصين المتحابّين يوجب ذلك بينهما تعاشقا جسميّا ، بسطوا ذلك في كتبهم ، وهذه منهم دعاوى لا برهان عليها. وفهمُ حقائق هذه المناسبة الروحانية متعذّر جدّا ، والذي يثبُتُ أن هذه المحبة لا يُتوصّل إليها بسبب ، ولا توجد عن طلب ، وإنما هي تعارفٌ جعله الله تعالى بين القلوب لا يعلمه سواه . وقيل (من الخفيف) :

١/٥

فيك معنىً يدعو النفوس إليكا ودليلٌ يَدُلّ منك عليكا
ليَ قلبٌ لـهُ إليكَ عيونٌ ناظراتٌ وكلّها في يديكا

٣ وإلى هذه الإشارة بقوله عليه السلام : « الأرواح أجناد مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ، ويعني بقوله أجناد مجنّدة أي أنواعا وأشكالا ، وأراد بالتعارف المناسبة فما تناسب من النوع الواحد تآلف وما
٦ لا يتّفق في النوع تنافر ، لأنّه لا مناسبة إذا اختلفت الأنواع فلا تآلُف . ولهذا نجد كل نوع من الحيوان يحنّ إلى نوعه كما نجد كل صنفٍ من الناس يحنّ إلى صنفه ، فمن الناس مَيْلُ العالم إلى العالم والجاهل إلى الجاهل والملك
٩ إلى الملك والسوقة إلى السوقة والتاجر إلى التاجر والفلاّح إلى الفلاّح والصانع إلى من يشاركه في صناعته تلك ، حتّى إن الصبيّ يحنّ إلى الصبيّ والشيخ إلى الشيخ ،وكذا في الحيوان غير الناطق مثل الحمام إلى الحمام والغراب إلى الغراب
١٢ والوحشيّ إلى الوحشيّ والانسيّ إلى الانسيّ . وقد تتّفق مناسبةٌ هي أبعد من هذه في أمور عرضية مثل ما يألف الغريب الغريب والمريض المريض والحزين الحزين والمحبّ المحبّ .
١٥ **ولقد** حُكي أن غراباكان يألف حمامةً ألفةً شديدةً فيطير معها إذا طارت ويسرح معها إذا سرحت فنُظر إلى السبب في تلازم اثنين من غير نوع واحد فوُجد كل واحد منهما أعرج فعُلم أن نسبة العرج هي الجامعة بينهما . وكذا
١٨ نجد كل ما في العالم من موْتلفين إنما ألّفت بينهما نسبة خاصية إما عرضية أو جوهرية خفية أو جلية ، حتّى نجد هذا التعاشق بين الجمادات مثل الحديد ينجذب للمغناطيس ، وعيون الأفاعي تنسلب لحجر الزمرد ، والتبر ينجذب
٢١ للقهربا ، والزئبق لبُرادة الذهب . وقال بعض الحكماء : « لكل شيء في العالم مغناطيس يجذبه وضدّ ينافره »،ولهذا قالوا : « الأشكال لاحقة بأشكالها »

---

١ فيك معنى البيتين : ديوان الحلاج J A 1931, 79.

٥/٢–٣

وقالوا: « القلوب تأنس لمن تجانس وشكل الشيء منجذِب إليه »، كما قيل (من الطويل) :

إلى الملإ الأعلى سَموتُ بهمّتي   كذلك شأن الشكل للشكل يجنَحُ ٣

وقال بعضهم : «كل جوهرٍ في العالم العلوي والسفلي إما عاشق وإما معشوق» يعني عاشق لمن فوقه ومعشوق لمن تحته حتى ان حركة الفلك عند هؤلاء عشقية ، فإن كل متلازمين في العالم إنما تلازما بأمرٍ عشقي كان ذلك ٦ ظاهرا أو باطنا .

(٥/٢) **والعلة** التي من أجلها تآلفت الأنواع بأنواعها والأجناس بأجناسها أن النفس المحركة للجنس الواحد واحدة بالجنس،والنفس المحركة للنوع الواحد ٩ واحدة بالنوعِ ، ومن أجل تنوّع النفس تنوّعت الأشخاص إذ الأشخاص تابعة للنفوس ، وكلّما انحطّت الأنواع إلى الأشخاص كانت المناسبة أشدّ ، فإن كانت هذه النسبة جوهرية دام التآلف بين المتحابّين وإن كانت عرضية ١٢ لم يطل التآلف بينهما وافترقا ، وكذلك العداوة . ولهذا قيل : « لا صداقة أثبت من صداقة اتّفاق الجواهر ولا عداوة أشدّ من عداوة اختلاف الجواهر» . ولهذا قيل (من السريع) : ١٥

وقائلٍ : كيفَ تفرّقتُما   فقلتُ قولا فيهِ إنصافُ
لم يكُ من شكلي ففارقتُه   والنّاسُ أشكالٌ وألاّفُ

(٥/٣) وقد نجد الاتفاق كثيرا ما يقع بين اثنين وليسا هما من نوع واحد، ١٨ كما نجد الاختلاف يقع بينهما وهما من نوعٍ واحد وهذا توجبه أسباب عرضية كما قدّمناه،والغالب زوال هذه المحبة إلا أن تجتمع لها أسباب كثيرة خفية عنّا توجب بقاءها . وقال بعض العلماء : « إن النفوس خُلقت شبْه دوائر ٢١

....

١٦ – ١٧ البيتان في نهاية الارب ٢/١٢٦ بلا عزو

٥/٤

وقُسمت كل دائرة منها بين شخصين فكل واحد في العالم يطلب الشخص
الذي به تكمل دائرة نفسه » . ولهذا القول معنىً غير ما يعطيه ظاهر اللفظ ،
٣ إذ يستحيل على النفوس الانسانية التجزُّؤ والانقسام لأنها ليست جِرميّة
والانقسام من عوارض الأجسام،وإنما يعني تناسُب المحلّ فيهما واستعداده
لقبول واحد ، وهذا أيضا فيه نظر ، والصحيح ما قرّرناه أوّلا من أن الصورتين
٦ تتقاربان في الاستعداد حتّى يُظَنّ أن استعدادهما واحد، فإمّا أن تكون هذه
المناسبة بالفطرة الأولى وإما أن يصلا إليها بعد أطوارٍ من الرياضة حتّى لا يكون
بينهما إلا عارضٌ خفيّ عن الأذهان ، ولا تُعلَم الكيفية في ذلك حقيقةً
٩ إلا بالذوق .

ومثال المناسبة الخفية أنّا نجد شخصا يحبّ آخر ليس من صنفه وليس
فيه أمارة ظاهرة مما قدّمناه توجب له عشقه . فهذه المحبة خاصية في جملة
١٢ جوهر النفس لا يعبّر عنها لسان ، ولا يطمع في فهمها خاطر ولا جنَان .
ولذلك نجد كثيرا من الناس يلذّ طعم شيء لا يلذّه غيره ولا يوافقه ،
ويستطيب رائحة لا يستطيبها غيره ، وكذلك يكره طعم شيء أو رائحته
١٥ لا يكرههما غيره ، كل ذلك بحسب موافقته المعنوية له أو مخالفته ، كما قيل
(من الكامل) :

ولقد نظرتُ إلى المِلاح فلم أجد قلبي يحبّ من الملاح سواهُ
١٨ شيءٌ به تُسبَى العقُولُ سوى الذي يسبي الجمالُ . ولستُ أعلم ما هو

(٥/٤) وإذا تقرّر أن المحبة تنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة أعني محبّة
الاحسان التي حاصلها يرجع إلى محبة الانسان ذاته ، ومحبة الجمال والكمال
٢١ اللذان يرجعان إلى محبة ذات المحبوب ، ومحبة المناسبة ، فمن المعلوم أن من

....

٣ التجزؤ : في الأصل « التجزي »

اجتمعت فيه هذه الخلال كلها على التمام كانت المحبة له أشدّ والتعلق به أكمل، مثل أن يكون محسنا دائم الاحسان كامل الذات جميل الصفات بينه وبين المحب مناسبة معنوية تدعو النفس إليه، فلا محالة أن هذا يحبّ بالضرورة ، ٣
إلا أن هذه الصفات لا توجد حقيقة على كمالها إلا في حق البارئ سبحانه، وإنما توجد في سواه على طريق المجاز. أما الإحسان فهو المحسن على الحقيقة وكلّ إحسان في العالم من لدنه وُجد وهو واهبه وخالقه وإذا كان الاحسان محبوبا ٦
لأنّه يُستعان به على دوام الوجود والبقاء وقتا مّا فالحقّ تعالى هو معطي جميع الأشياء الوجودَ والبقاءَ دائما ، وأما الجمال والكمال فقد تقرّر أن الكمال اجتماع الصفات المكملة للذوات وهي كلها ترجع إلى العلم والقدرة والحق ٩
تعالى هو العالم بجميع المعلومات على تفاصيلها فما من كلّيٍ ولا جزءيّ إلا وأحاط به علما ، وكذلك قدرته تعالى شاملة لجميع المقدورات . وأما جماله سبحانه فقد عمّ جميع الموجودات، فكل جمال في العالم العلويّ والسفليّ فمنه ١٢
ظهر وبه وُجد وعنه أشرق على سائر الذوات، وما تفرّق في جميع ذوات الوجود من الجمال فهو مستعار منه وموهوب عنه ، وكل جمال بالاضافة إلى جماله نقصٌ محض ، إذ لا يعطي الجمال إلا من هو أجمل منه، بل هو القيّوم الذي ١٥
قامت به سائر ذوات الموجودات .

وأما المناسبة والمشاكلة فهي تنقسم إلى ما يمكن كشف سرّه وإلى ما لا يمكن كشفه . أما ما يمكن كشفه فإن المناسبة التي بين العبد وربه فإنما هي ١٨
مناسبة القرب وذلك بالتخلّق بصفاته المعنوية من العلم والاحسان والرحمة واللطف وجميع النعوت التي أذن لنا في التخلّق بها ، وليس القرب من الله تعالى على معنى قرب الأجسام. وأما السرّ الذي لا يجوز شرحه ولا كشفه فهو ٢١
المناسبة الباطنة التي يومئ إليها قوله تعالى: ﴿يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض﴾ (٣٨«ص»٢٦) فالخلافة لا تكون إلا باشتراك باطن ومناسبة باطنة بينهما، وقوله تعالى: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ (١٥«الحجر»٢٩)، وانما استوجب الخلافة ٢٤

٥/٥

بذلك النفخ الإلهي ، وقال تعالى ﴿قل الروح من أمر ربّي﴾ (١٧«الأسراء»٨٥) والأمر الرباني لا يمكن الاطلاع على حقيقته . وإلى هذا يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق آدم على صورته » وإنما أراد الصورة الباطنة المعنوية لا الظاهرة التي تكون للأجسام تعالى الله عن ذلك ، وقوله : « فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به » . وقال تعالى فيما أوحى به إلى بعض أنبيائه « يا ابن آدم مرضتُ فلم تعُدني ، فقال: وكيف ذلك؟ قال: مرض عبدي فلان فلو عدته عدتني » . وهذه الإشارات كلها يجب أن لا تُشرَح حقائقها لغير أهلها بل تترك تحت حجاب الغَيرة حتى يصل إليها أهلها في أطوار أذواقهم . وإذا لم تجتمع هذه الأسباب كلها على الحقيقة إلا في الحقّ تعالى ، فلا محبوب على الحقيقة إلا هو ولا مطلوب سواه ، وكل محبة لغيره باطلة إلا ما أريد بها وجهه . (من الكامل) :

من لي سواك أُحبّهُ أوْ أعشَقُ ... ولك الملاحة والجمال المُطلقُ
ولكلّ حسنٍ أنتَ روحُ وجوده ... وعليه من معنى بهائك رونقُ
ما القدّ ما الطرف الكحيل وما اللّمى ... لولاك تُشهَد في حِلاه وتُرمَقُ
وجميع ما في الكون من مُستَحسَنٍ ... فإليكَ نسبته وباسمكَ ينطقُ
رقّتْ حواشي الحسنِ فيك فأهلُه ... قتلى هواك وكلهم لك يعشقُ
من مات في دَيْرِ الهوى بكَ صبوةً ... نالَ الشهادةَ وهو حيٌّ يُرْزَقُ

(٥/٥) **فصل** : واعلم أن النفس الانسانية محلّ قابل لورود الصور المختلفة إما من ناحية الحسّ وإمّا من جانب الغيب ، فما ورد من طريق الحسّ فلا يكون إلا بواسطة أسبابٍ تؤثّر في النفس آثاراً ملائمة لها أو

---

٦ يا ابن آدم مرضت الخ : انجيل متى ٢٥/٣٦

٥/٥

مخالفة ، فكل سبب أثّر في النفس صورة ملائمة لها سُمّي محبوبا ، وكل سبب أثّر فيها صورة غير ملائمة لطبعها سُمّي مكروها . والأثر الملائم إن كملت اللذّة به استغنت النفس عن السبب ، وإن لم تكمل اللذّة لا تزال تطلبه لحصول اللذة بواسطته حتّى يحصل لها الكمال ، وكمالها أن ترد عليها الصور اللذيذة من عالم الغيب دون شيء من الخارج، ولا يحصل الثاني إلا بعد حصول الأول غالبا . فالنفس على هذا محلّ لهذه الصور لا غير ، ولا تكسب أوّلا المعارف المكمّلة لذاتها إلا من الخارج بطريق الحواسّ ، حتّى إنّ مَن قد فقَد الحواسّ فقد فقَد كثيرا من العلوم الضرورية .

فهذه أقسام المحبة في نفسها وبحسب جنسها. فلنذكر بعد هذا أقسام سالكيها من المحبّين والله المعين .

الباب السادس

في اقسام المحبين من للسالكين

٣ (٦/١) **اعلم** أن السالكين لمقامات المحبة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :
الأول قومٌ وصلوا إليها من طريق الحسّ والخيال ولم يجاوزوهما ، الثاني قوم
وصلوا إليها من طريق الحسّ والعقل جميعا ، الثالث قوم وصلوا إليها من
٦ طريق العقل خاصّة متجاوزين لما قبله .

أما القسم الأول فموضوع محبتهم عالم الأجسام وحسن صورها وبديع
أشكالها لا غير ، ولا تجاوز محبّتهم عالم الخيال الباطن ، فهؤلاء مفتونون بتناسب
٩ الهيئات وجمال رونق المرئيات ، وبدائع غرائب صنعة المخلوقات ، وفي هذه
المحبة يُستعمل كثير من رسوم المحبين من العوامّ مثل القرب والبعد الحسّيّين .
وكذلك الوصل والفصل والغيبة والحضور والحجاب والتجلي والفراق واللقاء
١٢ وسائر أعراض الجسوم ، إذ لا يعقل أربابها إلا عوارضَ الجسم دون المعاني
التي هي أرواح الأجسام . فلذلك نجد أرباب هذه المحبة قد أفنَوا أعمارهم
في ندب الربوع الدارسة والبكاء على الأطلال الطامسة والحنين إلى عرَصات الديار ،
١٥ والتلهّف على الكثبان والأحجار ، شوقا إلى ربّات الحجال ، ووَجدا على ذات
الخال والخلخال ، فقلوبهم بنار الوجْد على المَغاني محترقة ، ودموعهم إثر
الظاعنين مستبقة ، يتزايد وجدهم عند رؤية الهوادج تحملها الجِمال ، ويتجدّد

---

١٤ ندب : في الاصل « ... ب » وصدر الكلمة مقطوع

غرامهم لمعاينة الآثار بين أحجارٍ ورمال ، كل هذا من غلبة الوهم والخيال ، فإن الوهم يخيّل لهم أن عَين الجمال المطلوب هو حسن الهيئة الحالّة في الأجسام وليس وراء ذلك شيء ، فاستحوذ هذا الوهم عليهم حتى عشقوها ، وأتلفوا نفائس نفوسهم فيها ، فأعماهم عشقُهم لها عمّا وراءها من الجمال الحقيقي المتجلي عليها الذي هو رسول عالم القدس إلى النفوس الزكية ، فقد طلبوا الأشياء من غير محلها ، فهمْ كما قيل (من الطويل) :

وهل يَرْجعُ التسليمَ أو يكشفُ العمى ثلاثُ الأثافي والرّسومُ البَلاقِـعُ

وفي هذه المحبة يقع كثير من التخليطات والشبُهات لما يقارنها في بعض الأحوال . (من الكامل) :

وكفاكَ أنّي للنّوائبِ عـاتبٌ ولصمّ أحجارِ الديارِ مُكلّمُ
ومنَ الغباوَةِ في الصّبابةِ أنّني مستَخبرٌ عنهنّ مَن لا يفهَمُ

وعند العوامّ من مطاوعة المنازع البهيميّة ، وارتكاب المناهي الشرعية ، – وهي تزيد باللقاء وتنقص بالجفاء ، وما أسرع زوالها عند الموت وأقلّ غناءَها في الآخرة ! قال تعالى: ﴿ الأخِلاَّء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عدوّ إلا المتّقين. ﴾ (٤٣«الزخرف»٦٧) – والوقوف معها حجابٌ عن الحقائق الإلهية.

حُكي أن بعض العارفين رأى رجلا يبكي على قبر ، فسأله عن بكائه فقال: إن صاحب هذا القبر كان لي محبوبا فلما مات لم أستطع صبرًا عنه، فقال له : يا هذا أنْتَ ظلمتَ نفسك حينَ أحبَبْتَ مَنْ يموت فلو أنّك أحببتَ من لا يموت لم تتعذّب بفراقه . (من الكامل) :

يا قلبِ كيفَ علِقتَ في أشراكهم ولقد عهِدتُكَ تُفلتُ الأشراكا
أهوًى وذُلاً في الهوَى وطَماعةً أبدا تعالى الله ما أشقاكا

....

٧ وهل يرجع الخ : لذي الرمة ، ديوانه ٣٣٢

٢/٦

لا تشكـُوَنّ إليّ وَجْدا بَعدَهـا هذا الذي جرّت علَيك يداكا

غيره (من الكامل) :

٣ نُوَبُ الزمانِ كثيرَةٌ وأشدُّها شمْلٌ تَحكّمَ فيه يومُ فراقِ

يا قلبِ لِم عرّضْتَ نفسكَ للهوَى أوَما علِمتَ مصارعَ العُشّاقِ

وأحوال هذا الصنف من عشّاق مجرد الجسم معلومة ولا حاجة بنا إلى الاطناب

٦ في وصف أحوالهم .

(٢/٦) **فصل : وأما القسم الثاني** من أقسام المحبّين وهم الذين وصلوا إلى المحبة من طريق الحسّ ثم بعد ذلك بلغوا إلى إدراك العقل ولم يقفوا مع

٩ عالم الخيال بل جاوزوه، وهم الأكثر من خواصّ السالكين ، فمحبوبُ هذا الصنف الجمال المعلّق بمحلّه ، ثم بعد الامعان في المعرفة يجرّدونه عن محلّه ، وذلك أن البصر إذا ودّى الصورة الحسّية إلى الخيال على ما هي عليه من

١٢ العلائق الجسمية يجرّدها الفكر عن العوارض الغريبة وينقل أرواحَ معانيها إلى النفس فتلتذّ بها إذ ذاك ، ولكن لا تكتفي بما حصل فيها من هذه الصورة الروحانية بل تطلب كمال المعنى الذي أدركته من محبوبها من الخارج بطريق

١٥ البصر ، ولا ينقطع هذا الطلب عنها ما لم يحصل لها الاتحاد بالصورة . وهذه المحبة وَسَطٌ بين الطرفين ، فهي شريفة من حيث حصول حقائقها في النفس والتذاذ النفس بها لذّةٌ هي أعظم من لذّة قوى البدن ، وكثيرا ما تُفضي إلى

١٨ ذوق الصنف الثالث، وهي أيضا ناقصةٌ من حيث أنها متعلقة بشخص معيّن مقصورةٌ عليه تزيد لذّتها بحضوره وتنقص بغيبته ، والنفس غير متكيّفة بما

....

٣ – ٤ نوب الزمان البيتين : لعلي بن الجهم ، ديوانه ١٥٦ ، ومصارع العشاق ٢٩٤

٢/٦

حصل فيها من المعنى المُدرَك ، كما قيل (من الرمل) :

شربتُ الحبّ كأسا بعدَ كأسٍ فما نَفِدَ الشرابُ وما رويتُ

ولهذه المحبة شروط وعلامات : فمن علاماتها ايثار المحبوب على ما سواه ، ٣
فإنّه لو علم أن في العالم من هو أكمل من محبوبه صفة أو أتمّ محاسنا لَصَرَف
عنان محبّته إليه . ويلزم عنها أيضا فراغ القلب مما سوى المحبوب وبذلُ النفس
في جانب محبته ، فلا يبقى فيه للغير شيء ولا لنفسه أيضا ، بل يكون إقباله ٦
عليه بالكلية ، وهذا هو حال الجمع والحضور ، كما قيل (من الوافر) :

أحِبّكَ لا ببَعْضي بل بكلّي وإن لم يُبقِ حبُّك لي حراكا
ويقبُح مِن سِواكَ الفعلُ عِندي فتفعلهُ فيحسُنُ منك ذاكا ٩

ثم يستوي عنده العزّ والذلّ ، والمنع والعطاء ، وسائر الأفعال التي يراها
غيره متضادّة فيراها هو حسنة كلها بل يراها واحدةً لصدورها عن محبوبٍ
واحد . ١٢

وأما كيفيّة الترقي عن هذه المحبّة إلى ما هو أعلى منها لمن أمدّه الله
بتوفيقه وذلك بأن يعلم بأنّ صورة المحبوب الحقيقية إنما هي الصورة التي
حصلت عنده منه ، فإن رسوم الجسم أمورٌ عارضة عرضت لتلك الصورة ١٥
وانها لو فارقتها الصورة لما كانت شيئا ، فإذا تصوّر هذا تعلّق بالمعنى الذي
استغنى به عن الأمور العرضية إلى أن تنطبع هذه الصورة المجرّدة في نفسه
وتمتزج بها امتزاجا عشقيّا ، فتَلطفُ النفس بذلك وتستنير فتقبل الأنوار ١٨

٢ شربت البيت : رسالة القشيري (١٣١٨) ٤٦ و ١٧٣ (باب المحبة) ، وإحياء علوم الدين (١٣٣٤) ٣٠٨/٤ (خاتمة كتاب المحبة)

٤ محاسنا : كذا في الأصل

٨ — ٩ احبك البيتين : الثاني في اللمع للسراج (ليدن ١٩٠٤) ٢٩٨

٣/٦

العلوية ، وتبصر الصور الروحانية في ذاتها ، ولا تزال تتعلّق بالأشرف فالأشرف حتى تبلغ إلى ما قُدّر لها من ذلك . (من الخفيف) :

٣ مـَا لمَجنونِ عامرٍ في هواهُ غيرُ شكوَى البِعادِ والاغترابِ
وأنا ضِـــدُّهُ فإنّ حبيبي في فؤادي فلمْ أزلْ في اقترابِ
فحبيبي منّي وفيّ وعِندي فلماذا أقول ما لي وما بي

٦ (٣/٦) **وأما القسم الثالث** من أقسام المحبين وهم الذين لاحظوا الجمال القدسي المتجلي لنفوسهم من العالم النوراني فقبلته نفوسهم لمناسبتها ايّاه فانطبعت فيها صورته انطباعَ صورة الشمس في مرآة نورية ثم تكيّفت النفس بذلك
٩ النور وتجوهرت به فأبصرت ذاتها النورية وما بها من آثار العالم النوراني فأحبتّها من جهةِ أنها هي ذلك النور القدسي . (من الكامل) :

سفرَتْ عن الوَجهِ الجميلِ فأسفَرا فبَدا هلالُ الحُسنِ منها مُقمرا
١٢ وَدَنَتْ فكاشفَتِ القلوبَ بسرِّها فسَقَتْ شرابَ الوصل منها كوثرا
فشربتُ راحَ الرُوحِ كأسا مُترَعا ولبِستُ سِرَّ الحُسنِ ثوْبا أحمرا
ورأيتُها في كلّ شيءٍ أبْصَرَتْ عَيْنايَ حتى صِرْتُ كلّي مُبصرا

١٥ وهذه المحبة هي النهاية وما قبلها من مقامات المحبة مُرادة لها وموصلة إليها، فإنها إذا قُصد بها الحق صفةُ المقرَّبين ، ومقام عباد الله المخلصين ، وهي مطلوب الرجال ذوي العرفان التامّ والكمال ، والمشرب الصفو الزلال ،
١٨ عزّ جانبِها عن أن يدّعيها أهل البطالة ، أو يتعاطى الخوض فيها أرباب الجهالة، ولا وصول إليها إلا بغاية الرياضة القلبية المقرونة بالاعانة الإلهية ، فإذا هي حصلت لا يُخشَى زوالها ولا يُخاف انتقالها ، لأنها منزّهة عن الأعراض .

....

٣ - ٥ ما لمجنون الأبيات : لابن العربي ، الفتوحات المكية ٢/٣٣٥ - ٣٣٦

(من الكامل) :

اللهُ يعلمُ لو طلبتُ زيادةً في حُبِّ عزّة ما وجدتُ مَزيدا

(٦/٤) ومن هذه المحبة تُفهَم محبة الحق تعالى للعبد المأخوذة من صريح ٣
قوله تعالى: ﴿ يحبّهم ويحبّونه. ﴾ (٥«المائدة»٥٤) فدلّ بها على أن محبّته تعالى
لهم هي السابقة لمحبتهم بل هي شرط فيها، ومعنى محبته تعالى لعبده تيسيره لطلب
محبته وتوفيقه لمعرفته، فلولا تيسيره لمحبته لما أحبّه، ولولا دلالته على معرفته لما ٦
عرفه، ومن أين للعدم المحض معرفة واجب الوجود لولا ذلك! (من الكامل) :

لمّا انتَسبتُ إلى حِماكَ تعرّفَتْ جهتي فصرت أنا وإلاّ مَن أنا

(٦/٥) وأما محبة المخلوق فمعناها ميل نفسٍ ناقصة إلى إدراك ما في إدراكه ٩
كمالٌ مّا كليّ أو جزءيّ ليحصل بهذا الميل الكمال الذي فقدتْه من ذاتها، إذ في
جوهرها محبة الكمال والتطبّع به إلى أن تبلغَ فيه إلى نهاية ما قُسم لها . وإذا
كانت هذه المحبة الانسانية بهذه الصفة فمحبة الله تعالى لعبده ليست كذلك ، ١٢
إذ كل جمال وكمال وبهاء وجلالٍ ودوام وبقاء في العالم مستفاد منه وموجود به،
فلا يكون منه التفات إلى غيره من حيث أنّه غيره لاستغنائه بكمال ذاته عن
كمال غيره ، فليس له نظر إلا إلى ذاته ولا محبة إلا لها ، ولكن إذا نظرتَ ١٥
نظر تحقيقٍ إلى الوجود كلّه لم تجد فيه شيئا إلا ذاته تعالى وأفعاله ، فهو الكلّ
وما سواه عدم في الحقيقة، وإذا كان العالم كلّه فعل الله وأحبّه فما أحبّ على
الحقيقة إلا ذاته لوجود الأفعال كلها به وعنه . ١٨

---

٢ الله يعلم البيت . . لكثير عزة ، شرح ديوان كثير نشر هنري پيرس (باريس ١٩٢٨ — ١٩٣٠) ٦٥/١

ولذلك لمّا قُرِئَ على الشيخ أبي سعيد الميهني قوله تعالى « يُحبّهم ويُحبونه » (٥٤ « المائدة » ٥) قال بحق ّ يحبّهم فإنّه لا يحبّ إلا نفسه على معنى
٣ أنّه الكلّ فهو المحبّ وهو المحبوب وليس للأشياء من ذواتها إلا العدم ، والوجود المطلق الحقيقي للحقّ تعالى كما قيل (من الرمل) :

ما لنا مِنّا سوى حال العَدمْ ولِبَـــارينَا البَقَـــاءُ والقِـدَمْ

٦ وإذا تقرّر أن محبة الله تعالى لعبده هي الحقيقة وبها تكون محبة العبد ولو لم تكن لم يكن في العالم محبة أصلا فهي النسبة الكبرى التي إليها تنتهي كل نسبة علوّا وسُفلا وبها يوصل إليها ويُستدلّ عليها . (من الخفيف) :

٩ ما بَدا فهو وجهُهُ والذي غاب أعظمُ
هو لا شكّ ظاهرٌ فهو بادٍ مُكَتَّمُ
لا تقلْ كيفَ لي بهِ فبهِ عَنْـهُ تفهَمُ

١٢ (٦/٦) **فصل** : واعلم أن الحقّ تعالى تجلّى لعباده في كل شيء فهم يشهدونه في كل مشهود ، ويطالعونه مع كلّ موجود ، وذلك عند فناء ذواتهم في مشاهدة ذاته ، لا بمعنى الحلول الذي هو من صفات المحدَثات ،
١٥ فعند فناء العبد وذهابه عن نفسه يشهد ربّه كأن الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان . وعلى هذا يُحمَل سائر اطلاقات المحبّين إذا غلبت عليهم صفات الانس وسكر الأحوال ، لا على معنى الحلول اللائق بالأجسام ، كما قال
١٨ الحلاج (من الرمل) :

أنا مَن أهوَى ومَن أهوَى أنا ليس في الكون سوى مَن هو انا

....

١٩ ديوان الحلاج Journal Asiatique 1931, 92 ورواية المصراع الثاني المشهورة هكذا :
نحن روحان حللنا بدنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦/٦

أو كما قال بعض العارفين من مشايخ الصوفية (من الوافر :)

أنا القرآنُ والسبع المثاني وروح الروح لا روح الأواني
فؤادي عند مولايَ مُقيمٌ يناجيـــهِ وعندكمُ لساني ٣
فلا تنظرْ بطرفك نحوَ جسمي وعَدّي عن تلقّيك المغاني
وغُصْ في بحرِ ذات الذات تُبصرْ عَجائبَ ما تَبَدّتْ للعيانِ
وأسرارًا مُهيّمنةً حِسانا مُستَّرَةً بأرواحِ المَعـــاني ٦
فمَن فَهِمَ الاشارةَ فليصُنْها وإلا سوف يُقتَلُ بالسِّنانِ
كحلاّجِ المحبّة إذ تَبَدّتْ له شمسُ الحقيقة بالتّداني
فقال أنا هوَ الحقّ الذي لا يُغيّر ذاتَه مَرُّ الزّمانِ ٩

فهذه أحوال السالكين ومقاماتهم من حيث الجملة ، ونحن نورد منها طرفًا على معنى التفصيل والشرح ننبّه فيها على ذوقهم ، ونستدلّ على شرف منازلهم بقدر ما يليق بهذا الكتاب ، فبنينا فيه القول على الاختصار والإيجاز . ١٢

٢ – ٨ لابن العربي : ارجع إلى ديوان الحلاج J. A 1931, 135-6 [والرواية هناك تخالف رواية ابن الدباغ في مواضع] .

الباب السابع

في مقامات السالكين واحوال العارفين

٣ (١/٧) **اعلم** أن المقام عند المحققين هو الملكة الثابتة لِما ينازله السالك
من الصفات ، والحال عندهم عبارة عن تأثّر القلب بالواردات من المحبوب ،
إلا أن ذلك سريع الزوال ، ولهذا قالوا : « ألف حال لا يحصل منها مقام
٦ واحد » . والاعتماد في السلوك على المقامات والملكات لا على الأحوال .

فصل في الشوق ومعناه حركة النفس إلى تتميم ابتهاجها بتصوّر حضرةَ
محبوبها ، وهو من لوازم المحبة ، إذ النفس تشتاق أبدا لمن تحبّ . وأما كيفية
٩ وجوده فاعلم أن ما لا يُدرَك حقيقةً بوجهٍ لا يُشتاق إليه ، وما أُدرك من
جميع جهاته لا يُتصوّر أيضا الشوق إليه ، لأنّه حاصل بالكليّة والحاصل
لا يُطلَب ، وإنما يكون الشوق لمن عُلم من طرف وجُهل من طرف آخر ،
١٢ فإن المُحبّ تُحرّكه لذّةُ ما أدرك لطلب ما لم يدرك . ومثال ذلك أن من
أدرك بعض صفات محبوبه وعلم يقينا أن له صفات غيرها هي أكمل من التي
أدرك وأن لذّة إدراكها أتمّ من لذّة إدراك ما حصل عنده ، فإن شوقه يحرّكه
١٥ إلى طلب ما فاته ليلتذّ بذلك ، وتحصيل اللذّة مطلوب وهي تابعة للادراك .
فهذا الشوق لا يسكن ولا في الدار الآخرة ، إذ كمال المحبوب لا ينتهي إلى
حدّ ؛ فالشوق إلى تحصيل هذا الكمال لا ينقطع أبدا . (من الطويل) :

١٨ فوَا عَجبًا من غُلّةٍ كلما ارتوَتْ من السلسبيلِ العذب زاد ضِرامُها

وبردِ رُضابِ سَلسَلٍ غيرَ أنّــهُ   إذا شرِبَتْهُ النفسُ زادَ هيَامُها

أو يكون معنى الشوق أنّ من أدرك صفات محبوبه إدراكا غير كامل فإنّه يشتاق إلى تكميل ذلك الادراك . ومثاله أنّ من عاين محبوبه في غيم رقيق على هيئةٍ مّا ثم علم أن ذلك الغيم هو المانع عن كمال الادراك وأنّه ينقشع فهو يشتاق إلى كمال الرؤية عند زوال المانع ، وزيادة شوقه بقدر تطلّعه إلى زيادة الوضوح والكشف في المشاهدة . (من الوافر) :

وأبْرَحُ ما يكونُ الشّوْقُ يوْما   إذا دَنَتِ الخيامُ من الخيَامِ

واعلم أن المحبّ ما لم يصل إلى مقام الاتّحاد لا تنقطع الحجب التي بينه وبين محبوبه ، فإنها كثيرة لكنّ بعضها ألطف وأشدّ نورانيّة من بعض ، وكلما كُشف له منها حجاب تاقت النفس إلى كشف ما بعده حتّى تزول جميعها عند الاتّحاد ، إذ هي عائقة عن حقيقة المشاهدة ، وآخرها حجاباً رؤية المحب ذاته في مشاهدة محبوبه ، إذ ملاحظته لها حجابٌ وشوبٌ في المشاهدة ، فإذا ارتفع ذلك بالفناء عنها وعن فنائه عنها شاهد المحبوب على ما هو عليه ، وإن لم يفنَ هذا الفناءَ فلا يشاهد محبوبه إلا بقدر ما يليق بإدراكه ، لا بقدر كمال المحبوب في نفسه ، إذ لا يدرك كمال المحبوب سواه ، فما دام ثم البسوا لم يصل إلى حقيقة الكمال في المشاهدة . وإذا كانت هذه المشاهدة على كمالها فليس في الوجود ألذّ منها ولا أعظم ولا أجلّ ، وقلّ ما تسلم من الشوائب في هذه الدار ، فإذا حصل هذا النوع من المشاهدة سكن زاعج الشوق المُقلق الذي هو محل الألم وبقيت حالةٌ تُسمّى حالة الاشتياق ، وهي صفة لازمة للمحبة في ضمن ذاتها ، وهي لذّةٌ محضة لا الم فيها بخلاف الشوق ،

٧ وأبرح البيت : رسالة القشيري (١٣/٨) ١٧٦ (باب الشوق) والفتوحات المكية ٣٤٠/٢ و٣٩٣/٣ [وفيها « الديار » بدل « الخيام »]

٢/٧

إذ هو يحرّك النفس تحريكا عنيفا حتى تصل إلى تلك الحال الكاملة ولا تقنع بشيء دونها ، وهي المشاهدة الحقيقية . (من الطويل) :

٣ أُعانِقها والنفسُ بعدُ مشوقــةٌ إلَيها وهل بعدَ العناقِ تَداني
وأَلثُمُ فاها كي تزُول صبابتي فيزْداد مَــا أَلقاهُ بالرشفــانِ
فيا مَن لنفسٍ ليس يشفي غليلَها سوى أن يُرَى الرّوحانِ يلتقيانِ

٦ (٢/٧) **تنبيه** : واعلم أن الصفات الواردة من المحبوب وإن كانت لا تنحصر كثْرةً ، إذ هي تتعاقب على الساعات ، وتختلف باختلاف الحالات ، فإنها ترجع بالجملة إلى ثلاث صفات : صفة **جمال** وصفة **جلال** وصفة **كمال** .
٩ فمن تجلّى له محبوبه بنعوت البهجة للنفوس من الجود والاحسان ، والرحمة والامتنان ، والعطف الشامل ، واللطف الكامل ، ورفع الحجاب ، وتيسير أسباب الاقتراب ، وسائر الصفات البهيّة ، الجليلة النورية ، والنعوت المبهجة
١٢ النسبيّة الموجبة للانبساط والأنس واللذّة والسرور فيقال إنّه مشاهد لصفات الجمال . ومن تجلّى له بنعوته الواجبة له من العزّ والقهر والعظمة والجبروت والسطوة والقدرة والاستيلاء ونظر إلى نفسه فرآها فقيرة
١٥ مقهورة ناقصة ذاهبة في عزّ كبريائه وقهر سلطانه فوجد لذلك في نفسه من الدهش والذهول ما يكاد يطمس معالم ذاته ، ويُفني رسوم صفاته ، فيقال إن هذا مشاهدٌ لصفات الجلال . ومن تجلّى له بصفاته التي لا تليق إلا به
١٨ من العلم والقدرة والانفراد بالخلق والإيجاد والغِنى المُطلق والقيّومة التي قام بها سائر الموجودات وعلم ما له من السنا والبهاء والنور الفائض على سائر الموجودات ، وان ظهورها كلها به ووجد في نفسه بذلك من المحبة والشوق
٢١ إلى كمال المعرفة به ما لا يعلم حقيقته إلا بارئه ، فيقال إن هذا مطالعٌ لصفات

....

٣–٥ لابن الرومي. ديوان المعاني لابي هلال العسكري (مصر ١٣٥٢) ١/٢٢٣ بخلاف في الألفاظ

الكمال . فصفات الجمال توجب الانبساط والأنس ، وصفات الجلالْ توجب الفناء والمحو ، وصفات الكمال توجب المحبة والشوق . ولهذا قالوا : « من كوشف بصفات الجمال عاش ومن كوشف بصفة الجلال طاش » . وبسطُ القول في هذه الصفات لا يليق بنا شرحه، فإن العقول لا تسع أكثر من هذا. (من الوافر) :

وجودي أن أغيب عن الوجودِ بما يَبدو عليّ من الشهودِ
وما لي في الوجود كثير حظّ ولكن وجْدُ موْجودِ الوجودِ

(٣/٧) **فصل في الأنس** ومعناه سرور القلب بشهود جمال الحبيب ، من غير استشعار رقيب ، بل مع الغفلة عن الماضي والمستقبل . وهذه الحال توجب انتعاش المحب وفرحه بِطيب عيشه وصفاء وقته ، فإنّه بما فيه من البهجة والطرب الروحاني يُخيّل له أن جميع الكائنات تشاركه في صفاء وقته وطيب حاله ، فهو يشاهد حالته تلك في تفتّح كِمام النُوّار، وتبلّج ثغور الأزهار، وتوريد خدود النعمان ، وانعطاف قدود البان، ولطافة مرّ النسيم ، وطلاقة مرأى الوجه الوسيم ، فيقول لسان حاله (من البسيط) :

يا صاحبَيّ قضيب البانِ ريّانُ والبدرُ ملتحفٌ والصبح عُريانُ
والنرجس الغضّ ساهٍ والغمامُ نَدٍ والطَلّ في طُرُزِ الريحانِ حيرانُ
فغالِطا نَعسَيّ بالكأس واختلِسا لُبّي فقد نفح النسرينُ والبانُ

واعلم أن هذه الحال قلّ ما يسلم فيها صاحبها من عوارض الدعوى والادلال ، فيُخافُ عليه السقوط من مقامه الذي هو فيه لغيرة المحبوب على إظهار أسرار المحبة ، ولا تُقال للمدلّ في ذلك عثرةٌ وإنما يُعذَر السكران لا صاحب الدعوى . (من الطويل) :

وما السرّ في الأحرار إلا وديعةٌ ولكن إذا رقّ المُدام فمنْ يقوى

٣/٧

إذ الأصل أن إفشاء سرّ الله تعالى كفرٌ فأما المؤيَّد بالتوفيق الإلهي فإنّه كلما نازَل هذا المقام تأكّد لزومه للأدب ولم يفارقه التعظيم ، ومن لم يحفظ

٣ شروط هذا المقام كان على خطر ، وكما قال بعضهم : « بلغنْا في هذا الأمر إلى ما هو أحدّ من السيف إن مِلْنَا هكذا ففي النار » .

وقد يوجد في خواصّ أهل الاصطفاء مَن لا يضرّه شيء من هذه الأمور

٦ التي يُظهرها سكر الأحوال ، فإن الحقّ تعالى حفظ عليهم أحوالهم كما أخلصهم من جميع الشوايب ، فهم سُكارى بحبّه على الدوام يتيهون في روضات الجمال ، وتتجلّى لهم محاسن عرائس الوجود من وراء ستور ربّات الحجال ، تُشرق

٩ الآفاق بأنوارهم ويتجمّل الوقت بآثارهم ، وتتأرّج بنسيم عرفانهم الأكوان ، ويتحلّى بهم جيد الزمان ، يهيمون بحبّه في كل الجهات ، ويتملّقون إليه في الخلوات ، فربّما أنشد منبسطهم على بساط الإدلال ، عند معاينة ذات الجمال ،

١٢ وارتفاع حجب الضلال (من الكامل) :

هَبّتْ رياحُ وِصالهم سَحَرا بحَرَائقٍ للشّوْقِ في قَلبي
فاهتَزّ غُصْنُ الوَجْدِ من طرَبٍ وتناثَرَت ثَمَرٌ من الحبِّ

١٥ وبَدَت شموس الوصل خارقةً بِشعاعِها لِسُرَادِقِ الحُجْبِ
وصَفَا لَنَا وقتٌ أضاءَ بِهِ وجهُ الرِّضا عن ظلمةِ العَتْبِ
وبقيتُ لا شيءٌ أشاهِدُهُ إلا ظَنَنتُ بأنّهُ حِبّي

١٨ وهذه الحالة ربّما غلبت على بعض المحبّين حتى تُخرجه إلى الافراط في الادلال فتصدر منه أحوال وأقوال يظنّ الجاهلون أنها كفرٌ أو زيغ ، فليس كذلك بل يجد فيها من ذاقها من الزيادة في صفاء وقته أمراً لا يلتفت <معه> إلى

٢١ أقاويل المنكرين ، ﴿بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه.﴾ (١٠«يونس»٣٩) وتُسمّى

....

٣ بلغنا الخ : قول الجنيد

٦ كما : في الأصل « لما »

تلك الأقوال بلسان أربابها شطحا ، ومنها الأقوال المأثورة عن الحلاّج رحمه الله وغيره مثل العارف أبي يزيد البسطامي حيث قال : « أنا الحقّ » أو قال مرةً « سبحاني » . وكثيرٌ من أرباب هذا الذوق من يحفظه الحق تعالى في حال سكره فلا يصدر منه ما يخالف ظواهر الشرع حتى يفتقر إلى التأويل ، وهم أهل التمكين في الأحوال ، فإنهم لا يتركون ملازمة الأدب طرفة عين . قال بعضهم : « قف على البساط وإياك والانبساط » وقال غيره : « فُتح عليّ بابٌ من البُسط فزللت زلّةً فحُجبت عن مقامي أربعين سنة » . ومن علامات صاحب الأنس أن تستوي عنده الخلوة والملأ ، والغربة والوطن ، فلا يجد وحشة مع محبوبه. إذ هو يشاهده في جميع الكائنات ، فيرى الوجود كلّه مواضع آثاره ، ومعالم أخباره ، ومواقع أنواره ، ومعادن أسراره. (من الخفيف) :

لمَعَتْ نارُهُم وقد عسعَسَ الليْـ ـلُ وضَجّ الحادي وحارَ الدليلُ
فتأمّلْتُهــا وقلتُ لصَحْبي هذه النارُ نارُ ليلَى فميلوا

وعندما يستروح المحبّ إلى نسيم الجمال ، وتستتر عنه لوامع بروق الجلال ، يستريح إلى تقبيل الآثار ، ويسأل الرسوم عن الأخبار ، ويطوف بالأطلال ، ويُكثر الوقوف بها والتّسآل ، لتشهد النفسُ من مرابع أحبابها ، وملاعب أترابها ، ما يكون مُذكرا لها بالسُكّان ، فلتستدلّ على الأثر بالعيان . ومن شيم النفوس الحرّة الحنين إلى مألف الصبا ، والتعرّض لنفحات الضنا ، والشوق إلى معاهد عَمَرَتْها مع الأحباب ، وجرت في عَرَصاتها برود الشباب مع الأتراب . (من البسيط) :

تهفو إلى البانِ من قلبي نوازعه وما بيَ البانُ بل مَن داره البانُ

٣ وكثير : في الأصل وكثيرا

١٠ معالم : في الاصل « بملت »

١١ وضج : في الأصل « وصبج »

٣/٧

وقد جرت العادة الإلهية ، والحكمة الربانية ، بارتباط الأنوار بالهياكل ، والأرواح بالأجسام ، والمعاني بالقوالب ارتباطَ لطيفٍ بكثيف ، وعالٍ بسافل ، ليدلّ الأدنى على الأقصى ، والظاهر على الباطن . فلذلك يستدلّ المحبّ بالدار على الساكن .

وإذا نظرتَ تحقيقا بنوع آخر من النظر وجدت الربوع التي هي محلّ الحبيب أكناف القلب ومحل أنواره ، لا رمل اللوَى ومعاقد كثبانه ، ومساقط أحجاره ، وتجد المحبّ على الحقيقة هو الذي يتجلّى له محبوبه من آفاق ضمائره ، وأكناف خواطره ، فيقول (من الطويل) :

إذا اشتقتُ مغناكم نظرتُ إلى قلْبي ... فأنتم به عند التباعد والقربِ
أحنّ إلى رمل اللوَى من دياركم ... ولولاكمُ ما اشتقتُ يوْما إلى التربِ

ثم تنظر نظرا آخر فتجد عنده هذه الأشياء كلها ظاهرَها وباطنها فتعتقد أن الرسوم الخارجة مذُكرة بالمنازل القلبية والمواطن الروحانية ، وترى أن في رؤية هذه الظواهر تأثير معنىً في السرائر . ولهذا جاء الشرع باحترام ظواهرَ تُشير إلى مَعانٍ شريفة ، وأرواح لطيفة . منها احترام المصحف لدلالته على معاني كلام الله تعالى فـ ﴿ لا يمسّه إلاالمطهّرون ﴾ (٥٦«الواقعة»٧٩) ، ومنها الحجر الأسود لكونه يمين الله في الأرض ، والكعبة لكونها بيته ، وإن كانت ظواهر هذه الأجسام، لكن تأثير القلب بمعانيها لا يخفى . (من الطويل) :

ولمّا تبَدّى لي من السجفِ حاجبٌ ... ومقلةُ ليلَى من وراءِ نِقابِها
بعثتُ برسْلِ الدمعِ بيني وبينها ... لتأذن في قربي وتَقبيل بابِها
فما أذِنتْ إلا بإيماضِ طَرْفها ... ولا سَمَحتْ إلا بلثْمِ ترابها

وإذا استولت المحبة على قلب المحبّ ، وسكر من صفو مُدامها ، وتردد في أودية غرامها ، وأحرقتهُ لواعجُ الشوق المُقلق ، والوَجد المُحرق ، استراح

لكل شيء له أدنى تعلّق بالمحبوب وتشبّث بكلّ سبب يتوهّم أنّه يوصل إلى المطلوب . فيتعلّل بلمعان البروق . ويُداوي بهبّات النسيم قلبه المشوق ، ويستسقي الغمام لعرصات الديار . ويلثم من شغفه الرسوم والآثار ، ولا سيما إذا سُلب القرار ، وأعوزه الاصطبار . (من الطويل) : ٣

بوادي الغضى لاقيتُ ليلى مقيمةً فمَن لي بها يومَ الطّوافِ أراها
أحُجّ إليها لا إلى البيتِ قاصدا أقبّلُ تُربَ الأرضِ حين تَطاها ٦

فإذا صحا المحب من هذه السكرة . وأفاق من هذه الحيرة ، رأى أن النظر إلى ظواهر الأطلال عائقٌ له عن مشاهدة ذات الجمال ، وأن الالتفات إلى المحسوسات نقصٌ في مشاهدة الذات فحينئذٍ يقول (من البسيط) : ٩

لا كان وادي الغضى لا ينزلون به ولا الحِمى سَحّ في أرجائه مَطَرُ
ولا النّسيمُ وإن رقّتْ شمائِلُهُ إن لم يُعِد نشركم لا ضمّهُ شَجَرُ

فالمحبّ على هذا بين صحوٍ وسكر حتّى يصل إلى التمكين في مقامه . ١٢

(٤/٧) **فصل في الرضى** : أما الرِضَى فإنّه من مقامات السالكين ومعناه غيبة المحبّ عن الإحساس بالألم مع كمون صورته عنده في الطبع ، والصبرُ تحمّل المشقّة في جنب المطلوب مع الشعور بالألم . وكلاهما حجاب عن حقيقة المحبة إذ حقيقة المحبة أن يفرح المحبّ بجميع ما يصدر من محبوبه حتّى الهجر ، لا من جهة أنّه بُعدٌ عن المحبوب بل من جهة أنه مراده خاصة ، كما قيل (من الكامل) : ١٥ ١٨

وقفَ الهوى بي حيثُ أنتَ فليس لي مُتأخّرٌ عنهُ ولا مُتقَدّمُ
أجِدُ الملامةَ في هواك لذيذَةً حُبّا لذكرك فليَلُمْني اللّوّمُ
أشبهتَ أعدائي فصِرْتُ أُحِبّهُم إذ صار حظّيَ منك حظّيَ منهمُ ٢١

وأهنتَني فأهَنْتُ نفسيَ طائعا ما مَن يهون عليك ممن يُكرَمَ

وهذا يُسمّى حُبّ الحبّ أي حبّ ما يحبّه المحبوب ، لأنّه إذا أحبّ
٣ مجرّد الوصل فقد آثر حظ نفسه على مراد محبوبه ، وإن أحَبّ الهجر فقد
أحبّ البعد عن الحبيب وهو مناقض للمحبة ، لكن يحبّ تساوي الأمرين
عند رضى الحبيب بهما لا غير ذلك ، كما قيل في هذا المعنى (من الوافر) :

٦ إذا ما كنتَ مسرورا بهجري فإني من سرورك في سُرُورِ

سُئِلَ سَرِيّ السَقَطيّ : هل يجدُ المحبّ طَعمَ الألم ؟ فقال : لا ،
قيل : وإن ضُربَ بالسيف ؟ قال : وإن ضُرب بالسيف سبعين ضربة على
٩ ضربة .

وحُكي أن بعض الشُطّار ضُرب مائة سوط فما تألّم بذلك، ثم ضُرب
بعد ذلك سوطا واحدا فتألّم وصاح ، فسئِل عن ذلك فقال : العينُ التي كنتُ
١٢ أُضربُ من أجلها كانت معي ناظرةً إليّ فلم أجد للضرب ألما ، فلما غابت
عني رجعتُ إلى جسمي فوجدتُ الألم .

وكذلك أيضا حُكي أن بشر بن الحارث قال : رأيتُ شخصا ببغداد
١٥ قد ضُرب ألف سوط ولم يتكلم، فلما حُمل إلى السجن تبعتُه فسألته عن
سكوته فقال : معشوقي الذي كنت أُضرَبُ من أجله كان حذائي ينظر إليّ ،
قلتُ : فلو نظرتَ إلى المعشوق الأكبر ؟ قال فزعق زعقة وخرّ ميتا .

١٨ وربّما بلغ ببعضهم الحال في ذلك حتى انّه إذا أمره محبوبه بأن يموت
مات كما حُكي أن شابّا عشق جاريةً فسمعها يوما وهي تغنّي وتقول .

---

٧ سئل السري السقطي : احياء علوم الدين ٤/٢٩٨ كتاب المحبة . بيان حقيقة الرضا

١٤ حكي ان بشر بن الحارث : احياء علوم الدين ٢٩٨,٤

١٧ وخر : في الأصل « خر»

١٩ ان شاباً الخ : احياء علوم الدين ٤/٣٠٠

٤/٧

(من المتقارب) :

علامة ذلّ الهَــوى على العاشقين البكا
ولا سيّما عاشقٌ إذا لم يجد مُشتَكى ٣

فقال : أحسنتِ واللهِ يا سيّدتي أفتأذنين لي أن أموت ؟ فقالت لهُ : مُت !
فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه فحرّك فإذا هو ميّت .
ومثل هذا كثير . فكل من لا يستعذب تعذيب محبوبه فهو بعيدٌ عن حقيقة ٦
المحبة . (من المجتثّ) :

عذابه فيكَ عَذبُ وبُعده منك قُربُ
وأنتَ عِندي كنفسي بل أنتَ عندي أحبُّ ٩
حسبي من الحبّ أنّي لِمــا تحبّ محبٌّ

ولا شكّ أن الرضى مقام جليل من أجلّ مقامات السالكين ، ومنزل
رفيع من منازل المحبين . ومن لم يصل إليه فما ذاق من لذة المحبة شيئا . ولهذا ١٢
أنكره الجُهّال وقالوا : لا يمكن وجود الرضى وليس إلا الصبر . ولا سبيل إلى
تفهيم ذلك لمن لم يدركه من نفسه ، ولا يدركه إلا من ذاق من طعم المحبة .
وإلا فلا يفهمه . ومن بلغ إليه ثم ارتقى عنه إلى استعذاب الألم فهو المحقّق . ١٥
وبعضهم قنع به لعلمه أنّ فيه رضى المحبوب والخروج عن اختيار النفس
فقال (من الطويل) :

وغايةُ آمــالي رضاكَ فإنّني أُجلُّكَ عنّي أن تكون مُواصلي ١٨

وإنما ودّاه إلى هذا القول مطالعةُ صفة الجلال الموجبة للتعظيم والهيبة ، فإنّ

٨–١١ عذابه الأبيات : ارجع الى ديوان الحلاج . J A 1931, 124-5

سطوة الجلال تهدّ الجبال ، فإذا شهد المحب هذه الصفة قنع بما رضي له به محبوبه ، إذ الهيبة تمنع من التمنّي. فلذلك امتنع بعضهم من الدعاء اكتفاءً بالعلم
٣ بالحال . وأما الرضى بالمعاصي والمخالفات فلا يصحّ إذ ذاك منافٍ لما يرضاه المحبوب ، ومن كوشف بعظمة محبوبه منعه ذلك من مخالفته أو مرور ذلك بخاطره ، وربّما أفضى ببعضهم ذلك حتى خجل من تمنّي الوصال فقال (من الكامل) :

٦ ومُمنّعٍ ما حَظّنا من وصله إلا المُنا ومواهبُ الأحلامِ
تهفو لهُ أرواحُنا فيصُدُّها عزُّ الجلال وهيبةُ الإعظامِ

وهذا المقام يلازم المحب ولا يبرح عنه ، لكنه يقوى ويضعف بحسب
٩ ضعف موادّ الطباع وقوتها . وقال بعضهم : « منذ أربعين سنة ما أقامني الحقّ تعالى في حال فكرهته ولا نقلني إلى غيره فسخطته » ،
يُشير إلى دوام الرضى . ولا شك أن الرضى مقامٌ خلافا لمن زعم أنه
١٢ حال إذ الحال لا يدوم .

(٥/٧) **فصل في الخوف والرجاء** : أما الخوف والرجاء فهما مقامان من مقامات عوامّ المحبين السالكين . ومعنى الخوف استشعار فوات محبوب
١٥ أو هجومِ مكروه ، والرجاء طمع النفس في نيل مطلوبها من محبوبها ، إلا أن الرجاء من صفات من شاهدَ روح الجمال ، والخوف من صفات من عاين عزّ الجلال ، فإذا داما وصار كل واحد منهما ملكة سُمّي ذلك مقاما .
١٨ ولا شك أن هذين المقامين يلزمان المحبّ في أول سلوكه ، فإنّ من أحبّ شيئا رجا ثبوته ودوامه وخاف فقده أو الانقطاع عنه ، لكن إذا غلب على المحبّ إحدى هاتين الصفتين ودام سُمّي المحبّ بذلك الوصف وانفراده
٢١ بأحدهما مع عدم الأخرى نقصٌ ، إذ مجرّد الخوف يوجب الوحشة من

٢٠ المحب : في الأصل « المحل »

٦/٧

المحبوب وذلك من أعظم الحجب ، ومجرد الرجاء يوقع المحب في الإعجاب فيسقط بسوء الأدب ، ولا يصحّ سلوك السالك إلا باعتدالهما فيه .

وأما **القبض والبسط** فإنهما صفتان يتواردان على قلب المحبّ فربما كانا عن سبب خفيّ جدّا لا يظهر وهما ألطف من الخوف والرجاء وأخصّ منهما بالمحبين ، وربّما صدرا عنهما فإن الخوف يقبض والرجاء يبسُط ، كما قال بعضهم : الخوف يقبضني والرجاء يبسُطني والحقيقة تجمعني والحق يفرّقني . ٣ ٦

(٦/٧) **فصل في المراقبة** : وأما المراقبة فهي أعلى من الخوف رتبةً وهي من مقامات المحبين المحققين ومعناها علم القلب بدوام شهود المحبوب له ، فهو دائم الإطراق مستجمع الهمّ ، شديد الفكر في المحبوب ، مُعرض عما سواه . (من الطويل) : ٩

كأنّ رقيبا منك يرعى خواطري وآخرُ يرْعى ناظري ولساني ١٢

يعني أنّه يمنع قلبه من أن يخطر غير محبوبه فيه ، ويصون اللسانَ عن النطق بغيره ، والبصر عن النظر إلا إليه ، والأذن عن الاستماع لغير كلامه ، فإن حدّث فعنه ، وإن استمع فمنه ، وإن لاحظ فإياه ، ولا يكون فيهُ نصيبٌ لغيره ظاهرا ولا باطنا ، كما قيل (من الطويل) : ١٥

إذا نحن أثْنَينا عليك بصالحٍ فأنتَ كما نُثْني وفوق الذي نُثْني
وإن ظهرَتْ في النطق دونك لفظةٌ لغيرك مخلوقا فأنت الذي نعني ١٨

ومَن تحقّق هذا المقام لا يمكنه الالتفات إلى الخلق ولا يتفرّغ للقائه

١٢ كأن رقيبا البيت : رسالة القشيري (١٣١٨) ٥٠ (باب تفسير ألفاظ)

ولا يُصغي إلى حديثهم ، ولا يحتفل بهم، ولا يعتذر إليهم ، ولا يلاحظهم من حيث ذواتهم ، فإن نظر إليهم من حيث أنهم صنعة المحبوب ووجودهم به ٣ ونسبتهم إليه فانّما هو ناظر إلى السرّ القائم بهم لا لهم ، فهو إذاً مع الصانع لا مع الصنعة ، بل تراه حاضرا مع الخلق وهو غائب عنهم بسرّه . (من الطويل) :

٦ وإخوانٍ صدقٍ قد سئمتُ حديثهم ... وأمسكت عنهم ناظري ولساني
وما الزهدُ أسلَى عنهمُ غيرَ أنّني ... وجدتُك مشهودي بكلّ مكانِ

ومن ذاق لذة مناجاة ربّه وعلم اطّلاعه على سرّ قلبه وشهوده لباطن ٩ أمره وخفيّ لبّه وتمثّل له في كل شيء يشاهده ، وسمع كلامه من كل ناطق وصامت ، كيف يُصغي بقلبه إلى سواه ؟ أم كيف يقنع بحظّ دونه وحاشاه ؟ لكن من ابتُلي بمراعاة الخلق وتنزّل لهم بأمر الحق يُصغي إلى أقوالهم وينظر ١٢ إلى أحوالهم ،وقلبه مع مُصرّفهم في أنواع التصريف ، مشاهد له في كل تفريق وتأليف . (من الكامل) :

وشُغلتُ عن فهم الحديث سوى ... ما كان منك فأنتمُ شغلي
١٥ وأديمُ نحو محدّثي نَظَـــري ... أنْ قد سمعتُ وعندكم عقلي

(٧/٧) **فصل في الهيبة** ومعناها وجود تعظيم في القلب يمنع من النظر إلى غير المحبوب . وهذا المقام ذاتيّ للمحبّ لا يفارقه ، إلا أنّه يشتدّ عند تجلّي ١٨ صفات الجلال . أما الخوف فإنّه يذهب عند وجود الرجاء والهيبة لا تنقطع

٣ لهم : لعله « اليهم »
٦–٧ واخوان البيتين : رسالة القشيري (١٣١٨) ٥٠
١٤–١٥ وشغلت البيتين : مصارع العشاق ٢٨٣ لقيس بن معاذ المجنون [نظري : ليرى || سمعت : فهمت]

إلا مع عدم المشاهدة والرجوع إلى الحسّ ، ولو غاب المحبوب طرفة عين عن المحب وخلي عن شهوده لذهبت نفسه ، وهل يبقى جسد بغير روح ؟ (من الكامل) : ٣

أشْتاقُهُ فإذا بَـدا أطرقتُ من إجْلالهِ
لا خيفَـةً بل هيبةً وصيَـانةً لجمالهِ

ومن لوازمه سكونُ القلب عن الاضطراب ودوام الحضور وعدم الالتفات إلى الأغيار ، وحفظ الأسرار ، فإن الحق تعالى يغار على محبه أن يطّلع عليه فيجد في قلبه تعظيما لغيره، وربّما منع بعضهم التعظيم لحبيبه أن يُجري ذكره على لسانه إجلالا وتعظيما له واحتقارا لنفسه فقال (من البسيط) : ٦ ٩

ما إن ذَكَرتكمُ إلا نسيتُكمُ نسيانَ إجلالِ لا نسيانَ إهمالِ
إذا تذكَّرتُ من أنتم وكيف أنا أجللْتُ ذكرَكُمُ يجري على بالي ١٢

وقال غيره في معنى التعظيم للمحبوب ، وستر السرّ الذي تنطوي عليه القلوب (من البسيط) :

أجللْتُ حبّهمُ عن أن يُدنّسه مثلي وحبُّهمُ عارٍ من الدنَسِ ١٥
فصِرتُ أهوى سواهم والمرادُ همُ بجبهة العَير يُفدَى حافرُ الفَرَسِ

(٨/٧) **فصل في الغيرة** : وأما الغيرة فهي من لوازم المحبة ، ويوصَف بها المُحب والمحبوب ، كل واحد منهما على نفسه وعلى حبيبه . أما غيرة المحبّ على نفسه فلئلا يكون فيها نصيب لغير محبوبه وإن دقّ ، بل يرى نفسه أهلا لحبّ حبيبه حتى لا يحبّه بشيء هو غيره بل يحبه به لا بسواه . ولهذا يفنى عن نفسه عند مشاهدته . وأما غيرته على حبيبه فلئلا يتّصف بمحبته ١٨ ٢١

مَن ليس من أهلها من أهل الدعاوى والمخارق ، ومن لم تكن له قدمٌ راسخةٌ في الحقائق .

٣ ولهذا لما سمع بعضهم أذان المؤذّن قال له : حربةٌ وسمُّ الموت ! لأنّه غار من غفلته عن حقيقة ما ذكر من صفات محبوبه،إذ لو تصوّر حقيقة المذكور على ما يجب لآثر ذلك التصوّر في كل مَن سمع نطقه .

٦ وربّما توالى هذا المقام على المحب حتى يغار من نفسه على محبوبه ، كما حُكي أن بعضهم قيل له: أتريدُ أن تراه ؟ قال : لا ! قيل : ولم ؟ قال: أُنزّه ذلك الجمال عن نظر مثلي .

٩ وقال الشبلي رحمه الله : « حقيقة المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبّه مثلك » . (من الكامل) :

إنّي لأحسُدُ ناظرَيَّ عَلَيكا حتى أغُضُّ إذا نظرتُ إلَيكا
١٢ وأراك تخطر في شمائلك التي هيَ فِتنَتي فأغارُ منك عَلَيكا

وهذا معنىً دقيق لا يفهمه إلا من ذاق من خالص المحبة الحقيقية .

وأما غيرة المحبوب على نفسه فتنشيءُ من علمه بكمال ذاته ، وبدائع

١٥ جمال صفاته ، وما ينفرد به من نعوت الجلال والكمال ، دون افتقار إلى غيره ، واحتياج إلى سواه ، وهذا لا يليق إلا بالحق تعالى . (من البسيط):

تاهتْ علينا لإن تَمّتْ محاسنُها خَودٌ تكلّمُ في أعطافِها الفِتَنُ
١٨ هَمّتْ بإتيانِنا حتى إذا نظرَتْ إلى المراة نهاها وجهُها الحسَنُ
ما كان هذا جزائي من محاسنها أغرَتْ بيَ الشوْق حتى شفّني الشجنُ

ومن أعجب أحوال المحبة أن يغار المحبوب على قلبه لمُحبّه أن يلتفت

٢١ لسواه وفاءً لودّه وحفظاً لعهده ، فلا يخصُّ بأسراره سواه ولا يُنيل غيرَه ما ينيله من تقريبه واصطفائه ، إذ لا يستوي من بذل نفسه في حقّ محبوبه ومن

يخل بها فيما يروم من مطلوبه .

وهذا حكي أن بعض أرباب القلوب سمع محبوبا يُعاتب محبّه بعتاب أغلظ له فيه حتى أثّر ذلك في قلب هذا السامع ، فلما كان بعد ذلك طلب أن ٣
يعتبه على ما كان منه في حق ذلك المحبّ المسكين ، فخرج إليه المحبوب وهو مبرقع ، فسأله عن ذلك فقال : إنما احتمل شدة عتابي وهاجر إليّ من
أوطانه ليفوز بالنظر إلى وجهي فأنا لا أُبيح أن ينظر إلى وجهي سواه . ٦
فهذا من غيرة المحبوب لمحبّه . (من الطويل) :

أعيْنَيَّ مهاةِ الرمل عنّي إليكما لليلَى علينا بالفَلاة رقيبُ
أغارُ عليْ قلبي لها وتغار لي على قلبها إنّ الهوى لَعجيبُ ٩

(٩/٧) **فصل في الذكر** : وأما الذكر فمن علامات المحبّ الاستهتار بذكر حبيبه ، فإن مَن أحبّ شيئا أكثر من ذكره ، وإن كان المحبّ لا يعتقد
الغيبة عن حبيبه ولا نسيانه ، ولا شيء أقبح من ذكر الحاضر ، إلا أنّ لسان ١٢
المحب مجبول على ذكر حبيبه ، ولهذا قالوا : « المحب إذا صمت هلك والعارف إذا نطق هلك » ، وإنما عنَوا به ذكر أسرار الحبّ التي مُنع من كشفها
لغير أربابها ، ولهذا قال علي بن الحسين صلوات الله عليه (من البسيط) : ١٥

يا رُبَّ جوهرِ علمٍ لو أبوح به لقيل لي أنتَ ممن يعبدُ الوثَنا
ولاستحَلّ رجالٌ صالحون دمي يروْن أقبحَ ما يأتونه حسَنَا

وقال عليّ كرّم الله وجهه : « حدّثوا الناس على قدر عقولهم ، أتحبّون ١٨

---

٨ لليلى : في الأصل « لليلا »

١٦–١٧ يا رب جوهر البيتين : الفتوحات المكية ٣٢/١ للشريف الرضي ، وقال ٢٠٠/١ : وإلى هذا العلم كان يشير علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب زين العابدين . . . بقوله فلا أدري هل هما من قيله أو تمثل بهما

٩/٧

أن يُكذَّب الله ورسوله ؟ » .

والذكر ينقسم إلى ثلاثة أقسام : ذكر اللسان المستمدّ من القلب ، وهذا
٣ الذكر كثيرا ما يردّده المحب ويستعذب ترداده ويحبّ سماعه من غيره ولو
كان على معنى العذل واللوم ، كما قيل (من الطويل) :

أعِد ذكرَ من أهوى ولو بملامي فإنّ أحاديثَ الحبيبِ مُدامي
٦ ليشهد سمعي مَن أحبّ وإن نأتْ بطيف ملامٍ لا بطيف منامي
فلي ذكرها يحلو على كلّ صيغةٍ ولو مزجوه عُذّلي بخصامي

والذكر الثاني ذكر الخواصّ وهو ذكر القلب ، ومعناه تصوّر حقيقة
٩ المحبوب في القلب والاستجماع لها بالكلية.. وهذه هي المناجاة وتسمّى مناجاة
الروح . ومن شرط هذا الذكر أن لا يتحرك فيه لسانٌ ، إذ اللسان يوجب
التفرقة وإن كان يترجم عن المعنى الذي في النفس . (من الوافر) :

١٢ أُريدُ عتابه فإذا التقينا تعاتبتِ الضّمائر في الصدورِ
سأصمتُ لا ألمْهُ ولا يلُمني لقد فَهِمَ الضميرُ عن الضميرِ

وإنما أراد لسان النفس لا لسان الجارحة ، فإن النفس هي الناطقة
١٥ واللسان آلة لها .

والذكر الثالث ذكر السرّ وهو من مقامات الواصلين من خاصّة الخاصّة .
ومعناه غيبة الذاكر في المذكور بالجملة حتى لا يبقى له رسمٌ فيكون المذكور
١٨ هو الذاكر. ويُشترط في هذا عدم الذاكر كما اشتُرط في الثاني عدمُ اللسان .

---

٣ كثيرا ما: في الأصل «كثير ما »

الباب الثامن

في منازل الواصلين من اهل التمكين

(١/٨) اعلم أن من شرط السالك أنّه لا يزال يترقّى على الدوام ولا ٣
يقف مع شيء ، فإنّه مهما شاهد من محبوبه صفةً فوقف معها كان ذلك عين
حظّه منه وحُجِب بها عن الزيادة ، فلا يزال يتطوّر في مراتب الكمال طوراً
بعد طور ، وكلما أدرك حالة جليلة استعدّ بحصولها عنده إلى منازلة ما هو ٦
أكمل منها . (من الكامل) :

لا زلتُ أنزل من ودادك منزلا   تتحيّرُ الألباب عند نزوله

ثمّ لا يزال كذلك حتى يصل إلى حالة الدهَش ، فعندها تذهل النفس ٩
عن عالم الحسّ بل عالمها الخاصّ بها وهو بدنها وقواها ، وتصير علويّة ليس
لها همّة إلا في الصعود والارتقاء والرفض لما سوى المحبوب ، وهو مقام
الحُرّيّة . فإن معنى الحرّ من لا يسترقّه شيء من الأكوان وأعراضها ، ١٢
بل لا يسترقّه شيء غير محبوبه ، فهو بالاضافة إلى الأكوان حُرٌّ وبالاضافة
إلى المحبوب عبد، إذ العبد المحب هو الفقير مطلقاً والمحبوب هو الغنيّ مطلقاً.
(من البسيط) : ١٥

---

٨ لا زلت البيت : اللمع للسراج (ليدن ١٩١٤) ٢١ ، رسالة القشيري (١٣١٨) ٤٨ ، (باب تفسير الفاظ)، احياء علوم الدين (مصر ١٣٣٤) ٢٦٣/٤ (بيان ان المستحق للمحبة هو الله وحده)

٢/٨

كانتْ لقلبيَ أهواءٌ مفرَّقةٌ فاستجمعتْ إذ رأتكَ العينُ أهوائي
وصار يحسدني مَن كنتُ أحسُده وصرتُ مولى الورَى مذصرتَ مولائي
٣ تركتُ للناس دنياهم ودينهمُ شُغلاً بحبّك يا ديني ودنيائي

(٢/٨) وعند البلوغ إلى هذا الحدّ من التجرّد يذهب كثير من المقامات والأحوال ، وإن كانت قبل هذا شرطا في السلوك إلى المحبوب ، فتصير
٦ حجابا ، كالشوق الذي معناه حركة القلب إلى نيل مطلوبه ، لأنّه إذا بلغ المحبُّ إلى الكشف والعيان ذهب شوقه ، كما قيل (من الوافر) :

ولا معنى لشكوى الشوق يوما إلى من لا يزول عن العيانِ

٩ وكالرضى ، فإن الرضى له معنيان : أحدهما تحمّل الألم لما يُرجى لأجله من الثواب ، والثاني الغيبة عن الألم بمعاينة الجزاء عليه ، وفي التحقيق ليس للألم عند المحبّ وجودٌ وليس إلا محض اللذة في جميع ما يصدر عن المحبوب ،
١٢ كما قيل (من البسيط) :

وكلّ ما يفعل المحبوب محبوبُ

وإذا كان الرضى حجابا فالصبر أحرى أن يكون حجابا ، وكذلك أيضا
١٥ الخوف والرجاء لغيبة المحبّ عن ذلك بشهود عين الجمع ، وأما الأحوال مثل الفصل والوصل ، والقرب والبعد ، والغيبة والحجاب ، والذكر والنسيان ، فلا تُستعمل هنا لتنزيه هذا المقام عنها ، إذ كلها عوارض تُشعر بالانفصال ،
١٨ واستعمالها مجازا لا جدوى له ولا غِنى فيه . (من الكامل) :

وإذا الديارُ تَعرّضتْ لمُتيَّمٍ لم يبقَ لا ذكرٌ ولا نسيانُ

١–٣ كانت الابيات : ديوان الحلاج J A 1931, 38 ، واحياء علوم الدين ٢٦٧/٤ (بيان ان اجل اللذات الخ) .
١٨ غنى : في الأصل « عنا »

٨/٣–٤

خذْ من عيونهم الأمان وهل لمن   حمل الغرام من العيون أمانُ

(٨/٣) وعند الوصول إلى هذا الحدّ من التجريد تغلب صورة المحبة على المحب فتصفّي ذاته من الشوائب العرضية ، فإذا كَمل صفاؤها يصير مرآةً نوريّة مهيّأة لما يرد عليها من محبوبها من الصور الجميلة ، فيلاحظها بعين الكمال اللائق بكمال المحبوب ويتنعّم بجميعها ، لأنّه يراها واحدة وإن تكثّرت في الخارج ، نظرا إلى صدورها من ذات واحدة ، لا نظرا إلى ذواتها في أنفسها ، إذ التفرقة تصرف عن لذة المشاهدة وتُعقب الشتات بعد الجمع ، والجمع أتمّ ، كما قيل (من المجتث) :

أجِلُّ ما منك يبدو   لأنّه عنكَ جلّى
وأنتَ يا نور قلبي   أجلُّ من أن تَجلّى
أفنيتَني عن جميعي   فكيف أرعى المجلّى

(٨/٤) فأما قول القائل (من الوافر) :

أحبّكَ لا أحبّك للثّوابِ   ولكنّي أحبّكَ للعِقَـابِ
وكلّ مآربي قد نلتُ منها   سوى ملذوذ وجدي بالعذابِ

وهذا القول إن لم يكن ظهر من سُكر فليس بكمال ، بل هو قصورٌ عن المطلوب من الحقيقة ، فإن الذات الواحدة يتساوى كل صادرٍ عنها بالنظر

....

ه لانه في الاصل « لانها »

١٣ – ١٤ احبك البيتين : ديوان الحلاج J.A.1931, 43 ، ورواهما لأبي يزيد البسطامي صاحب الفتوحات المكية ١/٥١١ ، ٢/٤٠٨ و ٥٢٤ و ٦١٤ و ٦٥٧ ، ٤،١٨٥
[أحبك : أريدك]

إلى ذاتها الجميلة المتحدة لا بالنظر إلى ذوات الأفعال ، فالعقاب والثواب
إذا رضي بهما المحبوب سيّان ، على أن المحب إذا اتّحدت ذاته بذات
٣ محبوبه محالٌ أن يرى صورة العقاب لاعتقاده أن ذاته هي ذات محبوبه وكيف
يعاقب الانسان ذاته ؟ ولا اعتبار عنده بالصورة الخارجة لأنها غير مناسبة
والاعتبار بالمناسبة أولى ، لأنّه أقربُ وأكثر خصوصيةً بالقلب ، ولهذا أقرّ
٦ هذا القائل على نفسه بعدم وجود هذه اللذة للعذاب كما وجدها بالثواب ،
ولا يُتصوّر أن يرى المحب الهجر والعذاب وسائر الأفعال المتضادّة حسّا
متغايرة لأن الفعل لا يكون إلا متعلّقا باثنين فيكون أحدهما فاعلا والآخر
٩ قابلا ، وهو خلاف الاتّحاد ، على أن الاتحاد أمرٌ عقليّ في الذهن لا في الخارج .

قيل للحسين بن منصور الحلاج : أيصبر المحب عن محبوبه ؟ فقال :
يستحيل صبر الشيء عن نفسه ، إذا صدقتِ المحبة تمازجت الكلية فاستحال
١٢ الفراق ، وأنشد (من الرمل) :

ما تصَبّرْتُ وهل يصْ برُ جسمي عن فؤادي
مازجت روحك روحي في دنوّي وبعادي
١٥ فأنا أنت كما أنـ ـكَ أنّي ومُرادي

وحُكي أن الوُشاة ذكروا ليلى عند قيس المجنون فغضب وقال : ما
افترقنا قط ، أنا ليلى وليلى أنا وكيف ينسى المرء نفسه ؟ فالذكر في محلّ
١٨ الحضور عيب لأنّه يؤذن بالفرقة وهي محال ، كما قيل (من البسيط) :

ما إن ذكرتُك إلا همّ يُبعدني نطقي وفكري وذكري عند ذكراكا

....

١٣–١٥ ما تصبرت الأبيات : ديوان الحلاج . J. A. 1931, 52 [ما : قد]
١٩–ص٨٨/م ما ان ذكرتك الأبيات : الأولان في رسالة القشيري (مصر ١٣١٨) ١٢١ (باب الذكر).
١٩ يبعدني : يلبعني–الأصل ، يزجرني–الرسالة ‖ نطقي وفكري وذكري : قلبي وسري وروحي–الرسالة

٥/٨

حتّى كأنّ رقيبا منك يهتف بي : إيّاك ويحك والتذكار إيّاكا
أما ترى الحقّ قد لاحتْ شواهده وواصَل الكلّ من معناه معناكا

قيل لبعض العارفين وهو في النزع : قل لا إله إلا الله ! فقال : أليس إليه أعود ؟ وقيل لآخر وهو يجود بنفسه : قل لا إله إلا الله ! فأنشد (من الخفيف) : ٣

أنا إن متّ فالهوى حشوُ قلبي وبداءِ الهوَى يموت الكرامُ ٦

(٥/٨) وإذا كانت الغيبة عن الحبيب غير ممكنة هنا فطلب رؤية الظاهر اقرارٌ بالحجاب . ولهذا قيل في حقّ نبيّنا وسيّدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ النجم (٥٣«النجم» ١١) لأنّه كان أتمّ مقاما ٩ من موسى عليه السلام. هذا في حق الأنبياء الذين هم مخصوصون بالكمال فهُم أهل الحضور على الدوام وأما مَن دونهم من الأولياء فإنما يُتَصوّر لهم هذا في أوقات عزيزة الوجود ولا يتمكّنون من دوام المشاهدة إلا بعد فراق هذه ١٢ الجسوم في حضرة القدس ، إمّا بالموت الحسّيّ وهو الأكثر وإما في حال الحياة عند الانسلاخ عن قوى الأبدان والتجرّد بالكلية وهو نادر ، وأما مِمّن دون هؤلاء من سالكي المحبّين فإنهم يجدون في رؤية الظاهر المُذكرة بمحبوبهم ١٥ زيادةَ معنىً تشوقهم إلى الجمال المودّع في الذوات الجميلة الذي هو من تجلّي عالم الجمال الكلي ، فلهذا يطلبون رؤية المذكرات والموصلات إلى ذلك العالم ، والمعاينةُ الظاهرة هي الباب لهذا الجناب كما قيل (من الوافر) : ١٨

لئن أصبحتُ مرتحلا بجسمي فقلبي عندكم أبدا مقيمُ

---

٦ أنا إن مت البيت : رسالة القشيري ١٦٤ (باب أحوالهم عند الخروج من الدنيا)

١٩—ص٨٩/١ لئن أصبحت الخ : الثاني في الفتوحات المكية ١٠٨/١ ، ١٩٥/٣ و ٢٨٧ و ٤٤٣

٦/٨

ولكن للعيان لطيفُ معنىً له سأل المعاينةَ الكليمُ

(٦/٨) **قاعدة** : واعلم أن كل مقام فهو كمال بالاضافة إلى ما دونه
٣ ونقصٌ بالاضافة إلى ما فوقه، ولهذا قالوا: « حسنات الأبرار سيئات المقرّبين ».
وللانسان حالتان : حالة يكون فيها فانيا عن نفسه موجودا بوجود محبوبه
وتُسمّى حالة الجمع لأنّه إذا فني عن نفسه فقد فني عن سائر العالم إذ نفسه
٦ أقرب الأشياء إليه ، وحالة يكون فيها ناظرا إلى نفسه وتُسمّى حالة التفرقة .
ومن حصل في حالة الجمع رأى محبوبه في كل شيء وسمع كلامه من كل
شيء ، ولا يختصّ إدراكه له بشيء دون شيء بل لا يبقى فيه جزء وهو
٩ خالٍ عن حبيبه لأنّ محلّ الادراك منه لا يتجزّأ فيُدركَ منه جزءا دون جزء ،
بل يعتقد في تلك الحال أنّه يشاهد محبوبه بكلّ ذرّةٍ فيه ظاهرة أو باطنة ،
كما قيل (من الطويل) :

١٢ فلو بسطتْ جسمي رأى كل جوهرٍ به كلّ قلبٍ فيه كلّ غرامِ

وهذا على المسامحة وإلا فالجسم بمجرّده لا يدرك شيئا ، وإنما الادراك
للنفس وهي لا تتجزأ ولا تنقسم، إذ ذاك من عوارض الأجسام ، وإنما يكون
١٥ إدراك المحبّ بكليته التي لا تنقسم ، كما قيل (من الطويل) :

إذا ما تجلّى لي فكلّي نواظرٌ وإن هُوَ ناجاني فكلّي مَسامِعُ

حُكي أن مجنون بني عامر مرّ بظبية قد حلّت في حبالة قانص فعاين
١٨ فيها مشابه من ليلى فرآها بعين ليلى فأطلقها وقال (من الوافر) :

ترَوَّحْ سالما يا شبه ليلى قرير العين واستطبِ البقولا
فليلى أنقذتْك من المنايا وفكّت عن قوائمك الكبولا

....

١٢ رأى : في الأصل « رأت »
١٨ مشابه : في الأصل « مشابها »

فرأى أن اليد التي أطلقت الظبية يد ليلى لصدور الفعل عنده عن نفسٍ واحدةٍ فناءً منه عن جملته في مشاهدة محبوبه .

وحُكي أيضا أن بعض المحبين عشق جارية له فمرضت فصنع لها حَسْوًا وأخذ يحرّكه وهو على النار بملعقة كانت في يده، فصاحت الجارية آه فدُهش الرجل وذهل عن نفسه، وسقط ما كان في يده فجعل يحرّك بأصابعه في القدر حتى سقطت أصابعه وهو لا يشعر، فنظرت إليه الجارية وهو على تلك الحال فقالت له : ما هذا يا سيدي؟ فقال : هذا من قولكِ آه . فهذا غاية الغيبة عن الإحساس في مشاهدة المحبوب .

وقد أخبر الله تعالى بذلك عن نسوة مصر حين قطعن أيديهنّ عند استغراقهنّ في مشاهدة صورة يوسف ولم يشعرن به ولا وجدن له ألما وعن ذهولهنّ حيث قلن ﴿ما هذا بشرا﴾(١٢«يوسف»٣١) وقد كان بشرا، وتصوّرنه ملكا كريما ولم يكن ملكا لكن إنما شهدن منه الصورة الباطنة التي هو بها ملَكٌ لا الظاهرةَ التي هو بها بشرٌ ، كما قيل (من الطويل) :

فما هو إلا أن أراها فجاءةً فأُبهَت لا عُرفٌ لَدَيّ ولا نُكر

وأما أهل التمكين في الأحوال فلا يقع فيهم هذا الأثر لاحتمالهم لهذه الواردات وقوّتهم عليها ، كما كانت امرأة العزيز حيث لم تقطع يدها كما فعلن صواحبها ، فإن هذا الأثر إنما يحدث عند ورود هذه الغواشي على معنى الفجاءة من غير توطين نفسٍ ، كما أنّ من وُلد مكفوف البصر وأقام كذلك مدة من عمره ثم أبصر دفعةً واحدةً وعاين ذوات الأشياء يحصل عنده منها ما يحصل عند من لم يشاهدها حتى فجأته . ولهذا لا يتأثر الانسان إلا عند رؤية شكل غريب، وهو يشاهد السموات والأرض وما بينهما من العجائب ولا يتأثّر، فالعارفون يشاهدون معروفهم على الدوام في جميع الذوات ويتجلّى لهم في جميع الموجودات وعلى جميع الحالات فلا يرون سواه ولا يلاحظون

في الكون حاشاه، بل لا يلاحظون ذواتهم إلا من حيث هي ملاحظة لمحبوبهم.
(من الطويل) :

٣ أرى كلّ شيء لاح للعين مرآةُ أشاهد فيه وجه مَن أنا أهواهُ
فهل عاشقٌ إلا لوجهك عِشقُه وهل نفَسٌ إلا سَرَى منك ريّاهُ
فلا ذاكرٌ إلا لأجلكَ ذِكرُهُ ولا راحلٌ إلا لقصدك مسراهُ
٦ ولا شيء إلا أنت فيه مُمَثَّلٌ مُقيمٌ وإن لاحت لعينيَّ أشباهُ

هذا مذهب المحققين ، ومَن ادّعى ذرّة من هذا المقام ورأى أن في العالم من هو أكمل من محبوبه ذاتا أو صفاتٍ فقد خرج عن حكم المحبة .
٩ كما حُكي : أن بعض الناس ادّعى محبّة جاريةٍ فجعل يوما يعاتبها وهما على سطحٍ عالٍ فقالت له : لو رأيت أختي فإنها أجمل مني ! فقال لها : وأين هي؟ فأشارت له إلى ناحية ، فلما نظر إلى تلك الناحية ألقته من أعلى السطح وقالت :
١٢ من يدّعي هَوانا ، لا ينظر إلى سوانا . ولهذا قال عليه السلام : « حُبّك الشيء يُعمي ويُصمّ . » أي يُعمي عن النظر إلى سوى المحبوب ويُصمّ عن الاستماع لغير حديثه ومناجاته .

١٥ (٧/٨) **تنبيه** : وأما ما ذكرناه من الغيبة عن الصور الجسمانية لعشق مجرّد الكمال فيدلّ عليه ما حُكي أن رجلا عشق جارية ثم بعد مدةٍ ذهبت إحدى عينيها وهو لا يشعر بها ، فلما كان بعد زمانٍ طويل اطّلع على ذلك منها
١٨ فسألها عنه فقالت : أوَما رأيته قبل هذا ؟ قال : لا ، فقالت له : لما كنت تنظر إليّ بعين المحبة التي لا تشاهد إلا الكمال لم يظهر لك مني نقص وأما الآن فقد ذهبت تلك المحبة . وفي ذلك قيل (من الطويل) :

٢١ وعين الرضى عن كلّ عيبٍ كليلةٌ ولكنّ عين السُخط تُبدي المساويا

---

٢١ وعين الرضى البيت : رسالة القشيري (مصر ١٣١٨) ١٥٧ (باب الصحبة)

ومن أرباب هذا الشأن من يغلب عليه مشاهدة أنوار الجمال فيغيّبُه ذلك عن مشاهدة ظاهر الصور، بل لا ينظر إليها لأنها توجب عنده التفرقة وتُخرجه عن حضرة الشهود . ٣

كما حُكي أن ليلى العامرية ضمّت قيسا المجنون إلى نفسها، فنظر إليها وقال لها : « إليكِ عني ! فإن الذي بي منكِ أشغلني عنكِ » استغراقا منه في مشاهدة صورة جمالها الباطنة المصوّرة في ذاته بحيث لم يبق فيه متّسع ٦ لصورتها الخارجة، إذ الصورة الباطنة هي في الحقيقة المناسبة للنفس بل هي عنده، والصورة الخارجة حجاب عنها وإن كانت أوّلا شرطا في حصولها .

وهذا غاية الحضور وهو الذي يسمّى الفناء في المشاهدة ، لأن الاشتغال ٩ برؤية السبب الخارج يمنع من كمال مشاهدة الجمال الحاصل في الباطن وكأنهما متغايران بوجهٍ مّا، وما عدا المقصود حجابٌ عنه . فلهذا كان في هذا المقام حجابا ما كان قبله شرطا إلا أنّ بعض العارفين تجلّى لهم الحق تعالى في كل ١٢ شيء فلا يحجبهم عنه حجاب . (من الطويل) :

تصوّركم نفسي على كلّ جوهرٍ فلم أر إلا أنتمُ حيثُ أنْظُرُ

وقد يوجد في خواصّ أهل التمكين من يعتمد على مشاهدة ظواهر ١٥ القوالب لكي تستتر عنه أنوار التجلّي المحرقة للمحلّ ، كما كان عليه السلام يضرب بيده على فخذ عائشة عند ذلك ويقول : « كلّميني يا حُمَيْرا » لكي يستتر عنه بعض ما كوشف به من صفات الجلال الموجبة لطمس الذات ١٨ فينزل إلى المحسوسات التي هي محلُّ الرحمة إبقاءً على مركب الرسالة في حقّ الأمة . (من الطويل) :

وإني لتعروني مهـــابةُ عزّهـــا إذا ما تراءت من بعيدٍ خيامُها ٢١
أعيد ذكرها يا من سلا في مسامعي ليشفي كُلوما في الفؤاد كلامُها

وكذلك دخلوا مرةً على الشبلي رحمه الله وهو ينتف لحمه بمنقاش كان في يده ، فسئل عن ذلك فقال : الحقيقة ظاهرة لي ولستُ أطيقها فأنا ٣ أدخلُ الألم على نفسي لعلي أحسُّ به فتستتر عني ، فلا أنا أجد الألم ولا هي تستتر عني . وإنما راعى الابقاء على قالبه ، ولا شكّ أن أنوار التجلّي المنسوبة للجلال تمحَقُ رسوم الذوات كما تمحق أنوارُ الشمس أبصارَ الخفافيش ، فإذا ٦ استترت تلك الأنوار عادت الذوات ، وإن ظهرت تلاشت . (من الرجز) :

كما ترَى حيّرني شرّدني عن وَطَني
إذا تغيّبتُ بَدا وإن بَدا غيّبَني

٩ وقال بعضهم : « أقمتُ كذا وكذا سنة بين الوجد والفقد ، إذا وجدت ربّي فقدت قلبي وإن وجدت قلبي فقدت ربّي » إشارةً منه إلى المحو والاثبات .

١٢ (٨/٨) وبالجملة فإن من قويت روحانيته بما يرد عليه من أفق الأنوار يضعفُ هيكله الانساني لكون ما يُكاشَف به من الصور الروحانية أعظم مما يُطيقه جسمه . ولذلك يوجَد صاحب هذا المقام إما قصير العمر أو ضعيف ١٥ البنية الآدمية ، وأما من لا يكون له رياضة قلبية فيذهل عقله ويفرّ عن الناس كمجنون ليلى إذ لم تُهذّبه الرياضة .

(٩/٨) ومن ردّه الحق تعالى من هذا المقام إلى العالم الأسفل في حقّ الأمّة ١٨ لينفعهم ويفيدهم ويدعوَهم إلى طريق ربهم ويُفيض عليهم من أنوار المعارف ما يكون لهم سُلّما إلى جناب الحق تعالى، كالأنبياء وقادة العلماء، فإن هؤلاء

....

٧ – ٨ كما ترى البيتين : للنوري . اللمع للسراج (ليدن ١٩١٤) ٣٦٩ [وفيها « أما ترى هيمني »] والثاني أيضا في ص ٣٤٠

١٠/٨

رُزقوا من التمكين في الأحوال والقوّة في المقامات بحيث أنّ منهم من يصعَد إلى أعلى علّيّين ثم ينزل عن ذلك المقام إلى أسفل سافلين في لحظة طرفٍ ويهون ذلك عليه، ثم يعود إلى مقامه الأول دون كُلفة لأنّه في كلتا حالتيه بالله لا بنفسه . فأما من رجع إلى المحسوسات وسكن إليها لمجرّد الراحة البدنية ففيه بقيّة . وأما المستغرقون في الأحوال الشهودية فإن أحدهم إذا أخذ في النزول إلى المحسوسات ولذّاتها أغرته تلك اللذة المحسوسة بما كان فيه من اللذات الروحانية الشهودية فيشتدّ شوقه إلى تلك الحال ويحنّ إلى كمال لذّته بمشاهدة عالم الجمال ، إذ اللذات المحسوسات يُستدلّ بها على اللذة الروحانية والمدلول أجلّ من الدليل عليه ، فهذا هو الفرق بين اللذتين عند العارف . وأما العامّي فيجب فِطَمه عن لذات المحسوسات ، إذ لا يطالع فيها إلا ذاتها وليس له نظر إلى سواها ، والكامل المعرفة يتوصل بكلّ شيء إلى ربّه تعالى. (من الطويل) :

ولمّا أبى إلا جماحا فؤادُهُ ولم يسلُ عن ليلى بمالٍ ولا أهلِ
تسلّى بأخرى غيرها فإذا التي تسلّى بها تُغري بليلى ولا تُسلي

(١٠/٨) **إشارة**: واعلم أن كل من أحبّ ذاتا مّا محبةً كاملةً خالصة وأراد الاتصال بتلك الذات لا يمكنه ذلك إلا بخلع ما سواها وترك الاحساس به، فإذا صحّ له هذا مع صحة التوجّه فقد وصل إلى المطلوب من الاتصال، ولا مانع من الاتصال بالحقّ مع حصول معرفته إلا بالشعور بما سواه ، ومَن تجرّد عن بدنه واطّرحه ناحيةً وفني عن شعوره بذلك فقد اتصل بالحق ، لأن بدن الانسان أقرب العالم المحسوس إليه ، فإذا فني عنه فقد فني عن العالم كله ، وهذا هو الوصول . ومن صار له هذا الانسلاخ ملكةً بحيث يفعله متى شاء فهو الواصل على الحقيقة لتمكّنه من مقام شهود الحق . ولا يصح هذا إلا لأفراد العارفين ، وأكثرهم لا يصل إليه إلا بقدر لمحةٍ أو بارقة ، وإنما يدوم دون قاطع بعد الموت ، لانقطاع علاقة الجسم بالكلية .

(١١/٨) وهذا آخر مقامات سلوك المحبين، فإذا بلغ السالك إلى هذا الحدّ واتصلت كليته بالمعشوق للمناسبة الكلية التي له معه وانطبع جميع ما في ذات محبوبه ٣ في ذاته، كمرآة انطبعت فيها صور كثيرة وقابلتها أخرى مثلها من الصفاء وكمال الهيئة ، فإن تلك المرآة تنطبعُ في هذه المقابلة لها بجميع ما فيها من الصور انطباعا متساويا بحيث تكون هذه هذه . وإذا صحّ هذا كانا ذاتا واحدةً علما ٦ وإرادة واطّلاعا وكشفا ، فيكون العاشق بهذا الاعتبار هو عين المعشوق والمعشوق هو عين العاشق، فيصير عشق النفس إذ ذاك لذاتها من حيث انها هي ذات محبوبها ، وتستعدّ بهذا الكمال لقبول الصور الروحانية الفائضة من معدن ٩ الجمال الكلي ، وتحبّه حبّا مفرطا وتتجوهر به ، ثم تستعدّ بذلك أيضا إلى إشراق جمال واهب الجمال الذي جماله لذاته وكلّ جمال في العالم العلويّ والسفلي مستفاد منه، فلا جميل على الحقيقة إلا الحق تعالى كما لا محبوب إلا هو ١٢ ولا مستحقّ لصفات الكمال والجمال والجلال سواه .

وإذ قد بلغ بنا القول إلى هذا الحدّ من تعاشُق الأرواح فلنذكر الآن مقام العشق جملة من غير تفصيل إذ مرّ الكلام على تفاصيله في الأبواب ١٥ المتقدمة .

الباب التاسع

في ذكر العشق على الاجمال
وما يتصل بذلك من الأحوال

٣

(١/٩) اعلم أن العشق هو أقصى درجات المحبة ومجاوزة الحد فيها ، وسائر مقامات المحبة كلها مندرجة فيه مثل الشوق والوجد والغرام والافتتان والدهش والفناء ، لأنّه مشتمل على جميعها ، ولذلك قالوا : « كل عاشقٍ محبّ وليس كل محبّ عاشقا » . وأيضا فقد تُطلق المحبة في عُرف اللغة على الارادة فيقال : أُحبُّ أن يُفعَل كذا ، كما يقال : أريد أن يُفعَل كذا ، ولا يُستعمل العشق هاهنا مكان الارادة كما استعملت المحبة .

٦ ٩

(٢/٩) وأما حد هذا المقام فقد عجز الناس عن حدّه كما عجزوا عن حد المحبة التي هي بعضه وموصلةٌ إليه . ولهذا لما سئل بعض الحكماء عن حقيقة العشق قال : « دقّ عن الافهام مسلكه ، وخفي عن الادراك موقعه ، وحارت العقول في كيفية تمكّنه » .

١٢

وقال بعض العلماء: «حد العشق امتزاج ظلّ الجمال بملكوتية الأوصال» ، وقال غيره : « العشق شدةُ الشوق إلى الاتحاد » .

١٥

ولا شك أن معناه اتحاد ذات المحبوب بذات المحب اتحادا عقليًا يوجب غفلة المحبّ عن الشعور بجملته شغلا عنها بشهود محبوبه في ذاته بذاته . وقال بعض المتقدمين : « العشق جنونٌ إلهيّ . » يعني أن العشق لا يدبَّر بعقل ولا

١٨

١٤ الجمال : في الأصل « الحمال »

تجري فيه أمورُ العاشق على ما يوجب صلاح بدنه بل خرابه وتشويهه : ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها . ﴾ (٢٧ «النمل» ٣٤) . لأن شهود الصفات ٣ الروحانية كلما قوي على المحب تخربت منه الصورة الجسمانية، وتشوّشت الجملة الآدمية ، وبقدر الغيبة في المشاهدة والفناء فيها يكون بقدر الإعراض عن مصالح البدن .

٦ (٣/٩) **تنبيه** : ولا شك أن نسبة العشق هي أمّ جميع النِسَب العلوية والسفلية ، ولولاها لم يكن في العالم حركة ولا متحرك ولا كامل ولا مكمّل ، فإن كل جوهر نورانيّ في العالم العلوي إمّا عاشق أو معشوق ، فسَرَت من ٩ ذلك نسبة العشق في جميع الكائنات حتى في الأجسام الحجرية ، فإنّا نجد بعضها يجذب بعضا بقوّةٍ عشقيّة خفية عن أذهان البشر ، كما قيل (من الطويل) :

١٢ فوَاعَجَبا للدهرِ لم يُخلِ مُهجةً من العشق حتى الماء يعشقه الخمرُ

واعلم أنّه ليس في العالم شيء إلا وله مغناطيس يجذبه لطيفا كان أو كثيفا ومغناطيس النفوس شعاع نور الجمال فلهذا كان تعاشق الأرواح انجذاب ١٥ بعضها إلى بعض حتى تتّحد كما أن اتحاد الأجسام امتزاج أجزائها بحيث يستحيل تمييزها ، كامتزاج الماء بالماء والهواء بالهواء والنار بالنار ، إذ كان كل واحد منهما مجرّدا عما ليس من جوهره ، والنار ألطف هذه الأجسام العنصرية ، ١٨ ولهذا تتّقد في باطن الحديد ولا تُدرَك بحاسّة البصر ، فإن تشبّثت بجسم يُرَ الجسم دونها لتكيّفه بها ، فما ظنّك بامتزاج النور بالنور ، فإن الأرواح أنوار مجرّدة فامتزاجها على غير امتزاج الأجسام بل اتحاد عقلي لا نسبة بينه وبين ما في ٢١ الخارج لا تُعلَم حقيقته من النطق بل بالذوق (من الكامل) :

....

١٨ يرَ : في الأصل « يرى »

رقّ الزجاجُ ورقّتِ الخمرُ ... وتشاكلا فتشابَهَ الأمْـــرُ
فكأنّما خمرٌ ولا قَـــدَحٌ ... وكأنّما قدحٌ ولا خَمْـــرُ

(٩/٤) ومما يدلّك على صحة اتصال النفوس الجزءية بعضها ببعض ٣
ما نجده كثيرا من موت أحد المتعاشقين بإثر موت الآخر لأن نفسهما الناطقة
واحدة ، والواحد لا يتجزّأ فيموتَ بعضه ويبقى بعضه ، إذ هو جوهر
لا تركيب فيه ، على أن الموت إنما هو انقطاع تدبير النفس عن البدن ، فالميّت ٦
على الحقيقة الجسم لا النفس .

(٩/٥) ولقائل أن يقول : كيف تُدبّر النفس الواحدة جسدين أحدهما
جسد العاشق والثاني جسد المعشوق ، ولو كان ذلك صحيحا لكان جميع ٩
العلوم والاعراض النفسانية فيهما متساوية وذلك غير ممكن ؟

فاعلم حينئذٍ أن جسد العاشق لا تدبّره النفس الناطقة ولا يظهر نورها
عليه وإنما تدبّره النفس الحيوانية لا غير من أجل جسمه الحيّ ، فإن العشق ١٢
إذا استولى على صاحبه تركه ذاهلا شبه المغشيّ عليه لا يسمع ولا يبصر إلا
حبيبه ، به يسمع وبه يبصر ، وكأنّه في عالم خاصّ به هو فيه موجود بحبيبه
فانٍ عن نفسه ، ولذلك يفرّ عن كل شاغل ولا يألف الناس إذ لا شركة له ١٥
معهم في الجزء الخاصّ به الذي هو نسبة الالفة ، بل يكون في سائر أحواله
مُعرضا عن أحوال العقلاء شبه المجنون ، كما قالوا: « العشق جنون إلهيّ »،
وإذا كان العشق جنونا فالجنونُ فنون ، كما قيل (من الكامل) : ١٨

ولقيتُ في حبّيك ما لم يلقه ... في حبّ ليلى قيسُها المجنونُ

....

١-٢ المشهور انهما للصاحب بن عباد، وهما في معاهد التنصيص (١٢٧٤) ٢٠٥ وديوان المعاني للعسكري ٣١٠/١ والفتوحات المكية ٢١٤/٣ و ٢٩٠ بغير عزو

١٤ خاص : في الأصل « خاض »

١٦ نسبة : كذا صّحح في الهامش والذي في الصلب « شبه »

٦/٩

لكنني لم أتّبعْ وحشَ الفلا كفعَالِ قيسٍ والجنون فنونُ

وكما قيل ايضا (من البسيط) :

٣ قالتْ جُننتَ على رأسي فقلت لها العشقُ أعظمُ مما بالمجانينِ
العشقُ ليس يُفيق الدهرَ صاحبُهُ وإنما يُصرَع المجنونُ في الحينِ

(٦/٩) **تنبيه** : ومقام العشق أقصى مقامات الذهول والغيبة عن الحسّ
٦ والاتصال بالعالم الروحاني ، فإذا وصل الانسان إلى هذا الحدّ من الغيبة عن نفسه اطّلع على أسرار الغيوب واخبر بها معاينةً لا على سبيل الحدس وغلبات الظنون، بل على الكشف والمشاهدة، إذ لا مانعِ للنفس من مشاهدة الغيب إلا
٩ الاشتغال بشغل الحواسّ وتصرّفها في العالم الأسفل . ونحن نجد الحواسّ الظاهرة إذا حُبست بالنوم شاهدتِ النفس الأمور الغيبية لتُفرغها عن الشغل بما تورده عليها الحواس فإنها حُجُبٌ مانعةٌ من الادراك الغيبي، على أن
١٢ تفرّغها عند النوم عارض ، فما ظنك بفراغها إذا كان دائما مستمرّا ، فلا محالة يكون اطلاعها على الغيب أدوَم ، وإخبارها عنه أصفَى ، وهذا تابع لصحة الاتصال بالعالم العلوي وهو يختلف ، فإن كان الاتصال بالأنوار القدسية
١٥ كان الإخبار بالغيب الكلي ، وإن كان الاتصال بالنفوس الجزءية كان الإخبار عن الغيب الجزءي ، وهو غيب المحبوب لاتصال النفس ، كما قيل (من الرمل) :

١٨ روحه روحي وروحي روحُهُ إنْ يشأ شئتُ وإن شِئْتُ يَشَا

واتصال النفسين هو اتحادهما حتى لا يكون بينهما فرق إلا بالجسم ، والجسم زائد على ماهية النفس ، والانسانية تُعقل في الذهن دون جسم ،

١٨ روحه البيت : الفتوحات المكية ٣٧٣/٤

إذ هي معنى كلّيٌّ يُتصوّر في النفس دون أمر زائد من شكل أو حامل وسائر الاعراض التي لحقت في الخارج ؛ ولا يفهم العقل حقيقة الانسانية إلا مجرّدة عن هذه العوارض على ما بُرهن عليه في موضعه ، وفيه يقول (من البسيط) : ٣

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته أتطلبُ الربح فيما فيه خُسرانُ
عَليكَ بالنفس فاستكملْ فضائلها فأنْتَ بالنفس لا بالجسم إنسانُ

(٧/٩) **تنبيه** : والنفوس كما سبق إذا صفت ورقّت تشبّهت بالملإ الأعلى ٦ وانتقشت فيها أمثلةُ الكائنات ، واطّلعت على المغيَّبات ، وأثّرت في السفليات ، كما أن الحديدة المحمّاة إذا تشبّثت بالنار وتكيّفت بها صارت تؤثّر في الأجسام أثرها ، لأجل التشبّه بها ، فمن أجل ذلك كان تأثير النفوس ٩ في هذا العالم على قدر تشبّهها بالعالم الأعلى ؛ وإذا كانت النفوس بهذا الحال صحّ لها اسم الكمال الانسانيّ ، أعني التشبّه بالعالم القدسي بحسب القسمة الإلهية والحظوة الربانيّة . وإذا وصل العارف إلى هذا الحدّ عاين الجمال الكلي الذي ١٢ هو معدن الجمال الجزءيّ وعنصره وهام به ، فيستعدّ بذلك لإفاضة نور الحقّ الفائض من لدنه فيتوصل به إلى جمال واجب الوجود لذاته فيتلاشى في شهوده بالكلية حتى تنعدم ذاته بالجملة ، ويصير من جملة المقرَّبين ، وذلك بأن ١٥ يتوالى عليه إشراقُ نور الحقّ تعالى من فيض الجود ، وتستعدّ ذاته لقبوله بشدّة صفائها . وكلما صفت قبلت النور ، وكلما أشرق عليها النور ازدادت صفاءً ، حتى تصير كلها نورا قدسيّا ، فينكشف لها عن جمال الحضرة ١٨ العلية الإلهية ، وتُرفَع لها حُجُب الجلال عن سبحات الجمال ، فتُعاين من جمال الحضرة الإلهية « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . وكيف يُطمَع في فهم حقيقةِ ما لم يخطر على قلب بشر أو كيف ٢١ يمكن العبارة عن ذلك ؟ (من البسيط) :

قد كان ما كان مما لست أذكره   فظُنّ خيرا ولا تسأل عن الخبَر

(٩/٨) وعند ذلك يحصل لها من اللذة والسرور، والابتهاج والحبور، ما
٣ يشغلها عن النظر إلى ذاتها فضلا عن غيرها، إذ النظر إلى ذاتها حجابٌ لها
عن كمال المشاهدة، فتفنى عن نفسها، ثم ترى أن استشعارها للفناء عن نفسها
شائبٌ في صفو المشاهدة، فتفنى عن رؤية فنائها، فتصل بذلك إلى بقائها
٦ السرمدي الذي هو البقاء بربّها لا بذاتها، إذ ذاتها فانية، وذلك غاية قدسها
ونعيمها، وتسمع الكلام الإلهي: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك
راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنّتي.﴾ (٨٩ «الفجر» ٢٧ —
٩ ٣٠) ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين.﴾ (٣٩ «الزمر» ٧٣).
فهذه صفة عباد الله المقرّبين الذين لا يشغلهم عن مشاهدة أنوار جمال الله
وجلاله شاغل.

١٢ (٩/٩) ومن لم يسمع هذا النداء في هذه الدار لم يسمعه غدا في دار القرار
إذ السابقة على وفق اللاحقة. فإذا تمت هذه الحالة التي تسمى الفناء، وعُدم
من النفس الميل إلى الخلق بالكلية وتجلّى لها الحقّ بصفة جلاله وجماله،
١٥ وشهدته على الحقيقة موصوفا بالصفة التي تليق بكماله، فحينئذٍ يصحّ الوصول
وتكمل السعادة القصوى. فإذا شهد العارفون الحقّ على ما هو عليه بعدم
ذواتهم من غير حجاب، إذ الحُجُب إنما هي من صفات الأجسام وإلا فالحقّ
١٨ تعالى ليس عليه حجاب في ذاته، ولا يليق بجلاله وإنما الحجب على الخلق من
ذواتهم، فإذا ارتفعت عنهم الحجب المنوطة بهم المانعة لهم تجلّت لهم جميع
صور الموجودات كلها فيرون العالم كله بالله، إذ رؤيتهم لله مشتملة على
٢١ جميع المرئيّات فيستدلّون عليها به كما استدلّ غيرهم عليه بها، لكنهم
يرونها بالنظر إلى موجدها عدما محضا لا وجود لها من ذاتها وإنما وجودها

١ قد كان البيت: لابن المعتز من الخمريات

معار لها من واهبها ، فيتحققون معنى قوله تعالى: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون . ﴾ (٢٨ «القصص» ٨٨) ، إذ كل ذرة في العالم لها وجهان : وجهٌ إلى ذاتها ووجه إلى ربها ، فالذي لها من ذاتها هو وجهها الهالك وهو محض العدم ، والذي لها من خالقها هو الباقي لأنّه وجه الحقّ و﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾،أي ما للأشياء من ذواتها عدمٌ، وما لها من خالقها فهو الوجود الباقي ، فلا باقي إلا الحق لا سواه . (من الوافر) :

شهدتُ وما شهدتُ سوى ايائي وما أحببتُ من ليلى سوائي
شهادةَ من أصار الفصل وصلا وسوّى في السّرابيل السواء
وسار إليــه منه وفيه حتّى رأى عين الحقيقة في العماء
فيفنى ثمّ يفنى ثمّ يبقــى فكان فناؤه عــينَ البقــاء

(٩/١٠) إلا أن هذا الحال لا يكون في هذا العالم إلا لوائح وبوارق ، ولا يدوم بالكلية إلا بعد فراق هذه الأجسام إذ تدبير ضروراتها من أعظم الحجب عن ذلك المقام الجليل . والواصل إلى هذا المقام هو الواصل على الحقيقة. والناس مختلفون في تحصيله وفي دوامه على قدر ما سبق لهم. (من الطويل) :

سقى الأوْطفُ الهطّالُ دارَك باللوى وَرَوّاكُمـــا يا أيّها العَلَمانِ
فعندكُما معنّي وإن كان غائبا أراه بقلبي فهو منّيَ دانِ

(٩/١١) وقد يتّفق لبعض الواصلين أن يُرَدّ من هذا المقام إلى الخلق رحمةً من الله سبحانه بهم ليوصِل إليهم هذه الرحمةَ الإلهية فيكون تنزّله إلى الخلق بالله لا بنفسه ، ويتصرّف في العالم بأمر الله ، ويُجري الحقّ تعالى على يديه من خوارق العادات وضروب الافادات ما يشهَد له أن سائر تصرّفاته عن أمر الله تعالى لا عن نفسه،إذ لا يرى نفسه ولا يلاحظها إلا من حيث هي

٨ — ١١ السواء ... العماء ... البقاء : في الاصل « السواي... العماي... البقاي»

ملاحظة لربّه . ومن شرط هذا العارف الوليّ أن يكون محفوظا مما يخالف
الشرع ، كما أن من شرط النبيّ أن يكون معصوما ، فهذا وأمثاله بهم يرحم
٣ الله تعالى الخلق . قال عليه السلام : « بهم تُمطَرون وبهم تُرحمون » .
فرحمة الله تعالى لعباده بعثُ الأنبياء عليهم السلام لهم ليُبلغوهم إلى معرفة
الله تعالى الموصلة إلى الرحمة الكبرى . ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا
٦ رحمة للعالمين ﴾ (٢١ «الانبياء» ١٠٧) . فمن كان أكثر أخذا لما جاءت به الأنبياء
عليهم السلام كان أوفر نصيبا من هذه الرحمة الإلهية المبثوثة في العالم بواسطتهم.
والكامل في الوراثة النبوية هو القطب والغوث وهو خليفة الله تعالى في هذا
٩ العالم . وهذه الرتبة كما قلنا آخر رتب الانسانية وأول رتب الملائكة ، إذ
حاصلها الخلود في جوار الله تعالى والقرب منه ، إذ القرب من الله تعالى
بالصفات لا بالأجسام ، تعالى قدسه عن ذلك .

١٢ (١٢/٩) **إشارة** : وإذا كانت محبة الله تعالى ومعرفته لا يُوصَل إليها
في الحقيقة بشيء سواه فهو العارف والمعروف ، وهو المحب والمحبوب ،
وهو الكلّ ، فكلّ وجودٍ حقيقيّ وجودُه ، وكل شهود شهوده. (من الكامل) :

١٥ غابتْ رسومُ شواهدي لمّا رأيتُ خيامهمْ
وفنيتُ عن بشريّتي لما سمعت كلامهم
وعدِمتُ رسم حقيقتي لمّا شربتُ مُدامهم

١٨ حُكي أن طارقا طرق باب أبي يزيد البسطامي رحمه الله فقال : هاهنا
أبو يزيد ؟ فصاح به أبو يزيد : يا هذا ، أبو يزيد يطلب أبا يزيد فما رآه .
وهذا من قوله يُشعر بذهابه في الله وغيبته عن نفسه ، إذ المحبة خمر العقول ،
٢١ فما ذاقها أحد إلا سكر . فمنهم من كان حظّه منها النشوة وهم أرباب المحبة ،

....

٣ تمطرون ... ترحمون : في الأصل بلا تنقيط حرفي المضارع
٥ الموصلة : في الأصل « الموصل »

١٣/٩

ومنهم من بلغ به السكر إلى الخروج عن أطوار البشرية وهو الطافح سكرا ، وهذه صفة العُشّاق . فإن الطافح لا يميّز من مصالح بدنه شيئا ، بل عشقه قد استولى على عقله البشري ، فهو يترجم عنه ويُظهر له ما فيه مما كان غائبا عنه ومحجوبا بذاته دونه ، وكما أن الخمر تنطق على لسان شاربها بما تتضمّنه ذاته من غير اختيار ولا قصد ، فكذلك الطافح عشقا تُظهر له خمرُ عشقه سرَّ معانيه الربانية ، وبديع شمائله الروحانية ، وتُفني وجه عقله المقبل على عالمه الأسفل ، وتُظهر وجهه المقبل على الملإ الأعلى الذي يتلقّى منه الأنوار الجمالية ، فيُقال له (من الرمل) :

أظهرتْ سرَّ معانيك الشَّمولُ فبدا الغائبُ واسْتحيا العذُولُ
وأعــــارتْكَ الحُميّـــا نَشْوَةً علّمَتْ بانَ الحِمى كيف يَميلُ

(١٣/٩) إلا أن العاشق إذا لم يكن له اختيار ، وتوالى عليه هذا السكر بتوالي الشرب ، فكلما شرب شيئا زاده ظمأ ، وكلما ظمئ شرب ، إلى أن تُمازجه أنوار المحبة فيصير حينئذ سكره من ذاته لا من غيره فيستحيل عليه الصحو . (من الوافر) :

أيا نَشوانَ مِن خَمْرٍ بفيه متى تصحُو وريقُكَ خنْدريسُ
أرى بك ما أراه بذي انتشاءٍ ألَحّ عليه بالكأسِ الجليسُ

فالمحبة هي الشرب بكأس الغرام ، والانتشاء من صفو ذلك المدام ، ويلزم عنهما حفظ الأسرار الإلهية ، وصيانتها عن سائر البرية ، لغيرة الحق على سرّه المكنون ، أن يتحلّى به من لا يجهد في إخفائه ويصون ، وأما العاشق فمعذور ، لأنّه مأخوذ عن نفسه مجرَّد عن حسّه ، قد تولاه الحق تعالى بحفظه ، وأجرى الحكمة على لسان عقله ، لا لسان لفظه . فهذا ما يمكننا من بسط القول في هذا الباب والاشارة إلى مشرب الأحباب .

---

٩ فبدا : كذا صحح في الهامش والذي في الصلب « اختفى »

الباب العاشر

في الفضائل التي تكتسبها النفس بطريق المحبة

٣

(١/١٠) اعلم أن المحبة تأثيرها في النفوس الانسانية اللطافة والصفاء والرقة وسائر الأوصاف المكملة لها التي تستعد بها للعزوج إلى الملإ الأعلى
٦ والاطلاع على أسرار عالم الغيب على ما أشرنا إليه .

أما تأثيرها صفاء النفس ورقتها فدليله أنا نجد أجلاف الاعراب رُعاء البهم ومن جانسهم من أغشام الأمم وجُهّالهم الذين لم يتّصفوا قطّ بعلم ولا
٩ حكمة إذا أحبّوا رقّتْ طباعهم، وصفت أذهانهم ، وشرفت نفوسهم، وعلت هممهم، ولطُف إدراكهم. ومن جملتهم مجنون ليلى فإن المحبة أنطقته بالحكمة نظما ونثرا ، وبلغت به غايةً لم يبلغها كثير من الناس بالرياضة ،
١٢ حتى صارت أحواله حُجّةً على المحبّين، وأقواله شاهدا على صحّة دعواهم، ولولا المحبة التي اتصف بها لم يخرج عن أهل طبقته من الجُهّال . هذا في هذا الصنف فما ظنّك بذوي النفوس الفاضلة والرياضة الكاملة !

١٥ وقد حُكي أن بهرام كان له ولد قد عزم على أن يرشّحه للملك بعده ، فنشأ دنيّ النفس ، كليلَ القريحة ، ساقط الهمّة ، فوكل به أبوه من يعلّمه الحكمة وآداب الملوك ، وكان يسألهم عن أحواله فيُخبرونه بما يسوءُه إلى
١٨ أن قال له بعض معلّميه : إنّا كنّا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صرنا به إلى اليأس منه ، وذلك أنّه رأى ابنة فلان المرزباني فعشقها فهو لا يهذي إلا

بأمرها ، ولا يتشاغل إلا بذكرها ، فقال بهرام : الآن رجوتُ صلاحه ، ثم دعا المرزبان أبا الجارية وقال له : إني مُسِرٌّ إليك سرّا فلا يعدونّك ! ثم أخبره بخبر ابنه وابنته وأعلمه أنّه يريد أن يُزوّجها إياه ، ثم قال له : مرها باطماعه في نفسها ومراسلته من غير أن يراها فإذا استحكم عشقه فمرها أن تتجلّى عليه وتهجره ، فإذا سألها عن السبب في ذلك فتقول له : إني لا أنكح إلا الملك أو لمن يكون له همّة ملك وإن ذلك هو الذي منعني عن مواصلتك . فإذا تمّ هذا كله فأعلمني ، ولا تُطلعها على ما أسررته إليك . ثم قال لمؤدّب ولده الملازم له : خوّفه بي وشجّعه على مراسلة الجارية . فلما تمّ ذلك كلّه على ما أمر به بهرام علم الفتى السبب الذي هجرتْه لأجله الجارية فأخذ في أنواع الأدب وطلب الحكمة وجمع الخصال التي تصلح للملك حتى برع فيها ، وبلغ ذلك إلى بهرام فسُرّ به وبعث إلى مؤدّبه أن الموضع الذي وضع ابني فيه نفسه من حب هذه الجارية لا يزري به فمره أن يرفع إليّ أمرها ويسألني أن أزوّجه إياها ، ففعل ذلك فزوّجه إياها وأمر بتعجيل نقلها إليه ، ثم قال له : يا بنيّ لا يضعنّ منها عندك مراسلتها إياك فإني أمرتها بذلك ، وهي أعظم الناس منّةً عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلّق بأخلاق الملوك ، ثم إنّ أباه زاد في تكريمه وعقّد له الملك بعده .

فقد عُلم من سياق هذه الحكاية وأمثالها أن المحبة تفتح على النفس أبواب الفضائل وتبلغ بها رتب السعادات إما الدنيوية أو الأخروية . والأعمال بالنيّات ، ولكلّ امرىء ما نوى .

(٢/١٠) ولقد تبلغ المحبة بأربابها إلى أحوال تكشف لهم فيها عن أسرار الغيوب ولا سيما غيب المحبوب ، فقد شاهدنا من يُخبر محبوبه بكلّ خفيّ وجليّ من أحوال نفسه ويدعوه من بُعد فيجيبه مشاهدةً لا يتطرق إليها احتمال . وقد ذكر أهل النقل كثيرا من هذا المعنى ، فلا نطول بذكره.

٣/١٠

(من الطويل) :

أُلاحظُهُ في كل شيءٍ رأيتُهُ وأدعوهُ سِرّا بالمُنى فيُجيبُ
٣ ملأتُ بهِ سمعي وقلبي وناظري وكلّي وأجزائي فأين يَغيبُ

(٣/١٠) **فصل** : وأما كون محبة الجمال المودَع في أنواع الموجودات تُنبّه النفوس الزكية من غفلتها، ثم تعرج بها إلى عالمها، ثم منه إلى حضرة القدس،
٦ فاعلم أن جميع ما في هذا العالم الأسفل من بهاء وجمال ونور واشراق المفرّق على ذوات الموجودات إنما هو أثر أنوار العالم الأعلى، فمنه هبط، وعنه أشرق، ليكون أولا دليلا عليه ومُوصلا آخرا إليه . فالذي يلوح على الأجسام النباتية
٩ من محاسن أصناف النُوّار ، وبدائع أشكال الأزهار ، فإنما ذلك مما أشرق على النبات من نور جمال النفس النباتية ، وما يلوح على الحيوان من جمال أعضائه وتناسُبها وحُسن شكلها فإنما ذلك من نور نفسه الحيوانية ، وما يظهر
١٢ على عالم الانسان من حسن الشمائل ولطافة المعاني والحسّ الرائق الذي هو أدقّ في النفوس من السحر فإنما ذلك سِرّ الجمال المشرق على تلك الأعضاء الجميلة من نور النفس الانسانية . وجميع هذه النفوس الثلاث إنما تستمدّ نورها
١٥ وجمالها من جمال العالم العلوي، وهذه وسائطه والعالم العلوي هو ينبوع أنوار القدس ، فهذا الجمال القدسي هو المتجلي للعالم علوا وسفلا بأنواره المقدّسة . لكن كل موجود يقبل من هذا النور الإلهي بقدر ما جعل الحق تعالى فيه
١٨ من القبول ، فما من ذرّة في العالم إلا وقد أشرق عليها نور الحق تعالى ، لكن القبول يختلف فيها . (من الكامل) :

بالنور يظهر ما ترى من صورة وبه وجودُ الكائنات بلا امترا
٢١ لكنّـه يخفى لفـرط ظهوره حسّا ويُدركه البصير من الورى

....

٤ الجمال : في الأصل « الكمال » ‖ الموجودات : في الأصل « الموجدات »

٣/١٠

فإذا نظرتَ بعينِ عقلك لمْ تجِدْ شيئا سواه على الذوات مصوَّرا
وإذا طلبتَ حقيقَةً من غيره فبذيل جهلك لم تزل متعثِّرا

والعارف إذا شاهد هذه الأنوار المودَعة في هذه القوالب الكثيفة ونقلها البصر إلى الخيال ، ثم جرّدها الفكر من علائقها وأوضاعها الجسمية ، وأوصلَها إلى النفس الناطقة فشَهِد بها في ذاتها بذاتها واتّحدتْ بها عرجت بها إلى محلّها الأعلى، وأُفق جنابها الأقدس الأسنى. ولهذا نجد من عَشِقَ شخصا حَسَنَ الصورة الآدميّة تامّ المحاسن ونقلَ محاسن ظاهره المجرّدة إلى نفسه الناطقة ثم غاب ذلك الشخص عن بصره مُدّةً ، أو لم يغب ورآه بعد ذلك وقد ذهبت تلك المحاسن عن هيكله وأفَلَتْ شمس الجمال عن طُلَل جسمه ، فإنّه لا يحنّ إليه كما كان أوّلا ، لأنّه ينظر إلى نفسه فيجد فيها تلك المحاسن مصوَّرة على ما كانت عليه من الكمال لم تتغيّر ولم تتبدّل بل ألطف مما كانت عليه وأنسب إلى نفسه اللطيفة ، ولم يبق في الخارج منها شيء، فيقول: ﴿ لن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنّا إذًا لظالمون. ﴾(١٢ «يوسف» ٧٩)، ويعلم حقيقةً أن المعشوق إنما هو تلك الصورة المجرّدة الحاصلة عنده التي لا تقبل التبديل ولا التغيير ، لا ما في الخارج . وإنما كان جسم ذلك الشخص محلا لها وشرطا في حصولها حينا مّا ، وقد فارقتْه الآن فيحبّ نفسه لمَا بها من صورة محبوبه الحقيقية ويستغني عن غيره ويستريح من ألم الفرقة وعذاب البعد لتمكّنه في مقام الاتحاد. فهذا هو العلة التي لأجلها يهجر المحبّ أطلال الجسم إذا رحل عنها الحبيب ، فيقول (من الكامل) :

بَعْد النقا وفراقِ جيران النَقى لا أمْرَعَ الغَوْرَ الغمامُ ولا سَقَى
وَجفَتْ غَوادي المُزْن وادي ضارجٍ والمُنحنى من بعدهم لا أورقا

....

٢٠ جيران النقا : في الأصل « حيران النقى »

ما النفع بالاطلالِ وهيَ عواطلٌ　　يوماً إذا شَمْلُ الخليطِ تمزّقا

(١٠/٤) ومن لم يكن بهذه الحال وانتقل من محبة شخص إلى شخص آخر ولم يحصل له هذا المقصود فقد ضيّع عمره ، وشتّت عزمه ، وأتعب نفسه ، وشقي الشقاوةَ العظيمةَ ، إذ المقصود الترقّي إلى واجب الوجود ، لا التردّد في حضيض عالم الأجسام ، أعاذنا الله من ذلك . (من البسيط) :

واضَيعةَ العمرِ لا الماضي انتفعتُ بهِ　　ولا حصلتُ على عِلْمٍ من الباقي

يفنى الزّمان وآمالي مُصرّمةٌ　　مَعْ مَنْ أُحبّ على مطلٍ وإملاقِ

قد كنتُ من أمَلي محبوسَ وصْلكمُ　　فوقّعَ الهجْرُ لي منكم بإطـــلاقِ

(١٠/٥) **تنبيه** : لعلك أن تقول: لا شك أن المحبة تؤثّر في النفوس من الرّقّة والصفاء ما يصلح به أن تكون سببا لحصول السعادة الأبدية ، وأفقا لشروق الأنوار الربّانية ، لكننا وجدنا كثيرا ممن تعرّض للمحبة وقف منها على محبة حُسن الصورة الشخصية ولم يكن له انتقال عن عوارض الجسوم حتى وافتْه منيّته وهو على ذلك . فنقول : إذا تقرّر أن المحبة تؤدّي بالفَطِن اللبيب إلى نَيْل السعادة فذلك شيء فيها بالذات . وكونُ قوم حصلوا منها على محبّةِ مجرّد الجسوم لضعف آلة السلوك فيهم ، ووقفوا معها ولم يكن لهم ترقٍّ إلى سوى ذلك أمرٌ عارضٌ في المحبة لا يقدح في فضيلتها ، كما لا يقدح في فضيلة الماء العذب البارد كون قوم من الناس شربوه فشرقوا به فماتوا ، فانّ كونه يُروي العطَش أمرٌ له بذاته ، وحصول الشرَق به لقوم مّا أمرٌ عرَضيّ فيه ، ولا يقدح الأمر العرضي في الذاتي . فكذلك المحبة تُصفّي جوهر النفس فيحصل لها بذلك الصفاء التناسبُ للجواهر الروحانية ، فإذا حوذي بها شطر المحبوب انطبع فيها ، كالمرآة الصقيلة إذا حوذي بها الصورةُ أيّ صورةٍ كانت . فمن كان مطلوبه الجانب الأعلى انصرفت همته إليه واستقبل شطره . ولا

٦/١٠

شك أن النفوس إذا رسخ فيها حُبّ المحسوسات حتى أفسد جملة جوهرها لم يبق فيها مطمعٌ للتوجّه من هذا الطريق ، لكن لها طُرُق أخرى من طرق أهل الرياضة فمنها تتوصل إن سبقت لها سابقةُ خير . وإنما تسلك من طريق المحبة النفوسُ المتيقّظة القوية الادراك بطبعها ، فإن هذه لا يرسخ فيها حبُّ المحسوسات رسوخَها في النفوس الضعيفة أو الجبانة . ولم يزل أئمّة الصوفية يتفرّسون في السالك إلى الله تعالى فإن علموه نازل الهمّة كليل الخاطر أشغلوه بظواهر العبادة من الصوم والصلوة ، فإن كان أنهض من ذلك قليلا ألزموه الفراغ والخلوة والذكر ، ولا يُبيحون طريق المحبة إلا لمن تحققوه زكيَّ النفس نافذَ الخاطر عالي الهمّة ، ويزجرون عنها من لم يتّصف بهذه الصفة بل يحذّرونه منها صيانةً بها عن غير أهلها : ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجا﴾ (٥ «المائدة» ٤٨) ، ولا شكّ أن الورد ينتفع به أقوامٌ بشمّه ويضرُّ بآخرين فيورثهم الزكام ، كما قيل في ذلك (من الخفيف) :

أنا كالوردِ فيه راحةُ قومٍ ثمّ فيهِ لآخرينَ زكامُ

(٦/١٠) **تنبيه** فإن قلتَ : أليس كلّ ذرّة في العالم من صُنع الله تعالى ودالّةً عليه دلالةَ الصُنع على الصانع ؟ فلأيّ شيء استدللت بالصورة الانسانيّة خاصّةً وجعلت معراجك منها إلى الملإ الأعلى ؟ وهلاّ كان نظرك هذا واعتبارك بالجمادات والنبات والحيوان غير الناطق ؟ فإن في كلّ جنس من هذه الأجناس من بديع الصنعة وغريب الحكمة ما لا يمكن العبارة عنه ، مع أن المتأمّل لهذه الأشياء لا تُخشى عليه منها آفة توجب انقطاعه وانعكاسه ! فأقول :

إذا ما كانت المعرفة بكمال الصانع إنما هي بقدر النظر في كمال صنعته ، والوقوفُ على جماله إنما هو بالوقوف على جمالها ، إذ الصنعة أدلُّ شيء على صانعها ، فمن المعلوم أن عالم الخلق ينقسم إلى ثلاثة أقسام : جماد ونبات

---

٢ طرق : كذا في الأصل

وحيوان ، والحيوان ينقسم إلى ناطق وهو الانسان وغير ناطق وهو البهائم ،
فلا شك أن الاستدلال بالنبات أكمل دلالة من الاستدلال بالجمادات ، لما في
٣ النبات من الكمالات المعدومة في الجمادات ، فإن النبات لما اعتدل اعتدالا
فارق به الجماد من أنّ فيه النموّ والاعتدال والتوليد، وَهَبَه الله تعالى من محلّ
الجود الإلهي نفسا نباتيةً أظهرت صورته الجميلة ، فمن أجل ذلك السرّ الإلهي
٦ تبتهج النفس الانسانية بمطالعة الأزهار الأنيقة، وحسن نضارة الرياض الأريضة،
فتنجلي بها همومها وتنصرف عنها شجونها، وليس ذلك إلا لما بها من آثار
هذا الجمال الذي وهبها خالقها وأفاضه عليها من محلّ الجمال العلوي ،
٩ فإذا ذَوَت تلك النضارة وصُوِّحت تلك الغضارة انصرفت النفس الانسانية عن
محبة الصور النباتية وإن بقيت أجزاؤها الجسمية على حالها، لعدم المعنى الروحاني
الزائد على الجسمية المناسب للنفس الزكية . وكذلك الاستدلال بالحيوان أكملُ
١٢ من الاستدلال بالنبات، لما في الحيوان من الكمالات المعدومة في النبات، ولهذا
قَبِل <من> النفس ما هو أكمل مما قَبِله النبات، واختصّ بالحواسّ الظاهرة
والقوى الباطنة المدركة التي هي موادّ العلوم . فلذلك كانت النفس الانسانية
١٥ تألف الحيوان أكثر من النبات ، لوجود ما فيه من الصفات المناسبة لها أكثر
مما في النبات . ولهذا نأنس بالحيوان ونلتذّ بأصوات الطيور الرخيمة ونستحسن
أجياد الظبا وألحاظ المها أكثر من عيون النوّار وأغصان الأشجار ، ولذلك
١٨ نجد كثيرا من الناس يحبّ شيات الخيل وتناسُب أعضائها، وهو زائد على
المنفعة المرادة منها ، وليس ذلك إلا لما فيها من جمال نفسها الحيوانية، كما
قيل (من الطويل) :

٢١ وما الخيل إلا كالصديق قليلةٌ وإن كثرت في عين من لا يجرِّبُ

---

٧ فتنجلي : في الأصل « فيتحلا »
٨ الجمال : في الأصل « الكمال »
٢١ – ص ١١٢/١ وما الخيل الخ : ديوان المتنبي (بشرح العكبري) ١٨٠/١

٦/١٠

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحُسنُ عنكَ مُغَيَّبُ

وإنما يشير إلى حسنها النفساني . ولهذا نجد طائفةً من الأمم من شدّة إفراط
عشقهم بجمال الحيوان البهيمي عبدوه ، كما يُحكى ذلك عن طائفة من الكفار ٣
من جُهّال الأُمَم ، إذ لم يكن لهم نظرٌ إلى صانعها تعالى الذي وهبها ذلك
الجمال . وأما الاستدلال بالانسان العاقل الكامل الذات ، الجميل الصفات ،
فذلك أكملُ وأفضل دلالةً من جميع ما تقدّم ،لاجتماع الكمالات الموجودة ٦
في النبات والحيوانات كلها فيه ، بل فيه من الكمالات ما لا يوجد فيها أبدا ،
ولولا أن الانسان جامعٌ لما في النبات والحيوان من القوى النباتية والحيوانية وله
بذلك معها شركة لم تُستحسن محاسنه ، فإن الاستحسان لا يكون إلا بمناسبة مّا ، ٩
فالانسان بكونه يغتذي وينمي ويلد قد شابه النبات ، وبكونه يُحسّ ويتحرّك
بالارادة ويشتهي ويغضب أشبه الحيوان ، وبكونه له نفس ناطقة عالمة بربّها
منتقشة بالمعارف العقلية والعلوم اللدنية حريصةٌ على اكتساب الفضائل مُحبّةٌ ١٢
في الكمالات أشبه الملائكة ، فليس في العالم أكمل من الانسان لأنّه جملة واحدة
قد جُمع فيها جميع ما في العالم الأكبر ، ولهذا أشرق عليه من النور الإلهي
أكملُ مما أشرق على غيره ، وهي اللطيفة الربّانية القدسية التي نسبها الحق ١٥
تعالى إلى نفسه فقال : ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ (١٥ « الحجر » ٢٩) .
ولم ينسب البشر إلا إلى الطين تشريفا لهذه الروح وتعظيما، ثم أودع فيها من
الجمال الفائق ، والنور الرائق ، والحسن الكامل ، والصنع الشامل ، ما تنسلب ١٨
له العقول ، وتنجذب حبّات القلوب ، فأيّ الاستدلال في هذا الوجود أتمّ
من الاستدلال بها ، إذ هي نسخة الوجود الكلي ، وزمرة العالم العلوي ؟ ومتى
يوجد في الدلالة على بارئها مثلُها ، وأيّ صنعةٍ أتقن من صنعتها ، أو جمالٍ ٢١

....

٩ محاسنه : في الأصل « محاسنها »

أتمّ من جمالها ، أو كمالٍ أبدعُ من كمالها ؟ وهل تكمل النفوس المشتاقة في
الكمال بشيء سواها إذا أدركت كمالها ، أو تصوّرت جمالها ؟ وهل تتخلّص
٣ النفوس الأمّارة عن عشق بدنها وحبّ سجنها المانع لها من اقتناص المعارف ،
والاستعداد لقبول العوارف ، بشيء أعظم من عشقها ؟

. (١٠/٧) ونزيدك على هذا بيانا فنقول :

٦ لو أنّ عالما من العلماء ذُكر لنا عنه علمٌ ، فأردنا أن نستدلّ على مبلغ
علمه وقدرته بما بلغ عنه ، فألّفينا له ثلاثة مصنفات : الأول منها يشتمل على
عجائب مدينة واحدة ، والثاني يشتمل على عجائب إقليم من الأقاليم ، والثالث
٩ يشتمل على عجائب العالم بأسره ، فإنّا لا نشكّ أن دّلالة التصنيف الثالث المحيط
بعجائب العالم وما فيه من الإحكام والاتقان أعظمُ وأدلُّ على علم المصنِّف
من دلالة الثاني ، والثاني أعظم دلالةً من الأول ، فالمصنِّف الأول هو عالم
١٢ الأجسام الجمادية ، والثاني عالم الحيوان غير الناطق ، والثالث عالم الانسان ، فدلالته
على بارئه أعظم من دلالة سائر المخلوقات لاشتماله على جميع ما اشتملت
عليه من الإحكام والإتقان ، فهو نسخة كتاب الوجود وسر العالم الأكبر على
١٥ ما تقدم بيانه .

وأما قولك إن الاستدلال بالجمادات والنبات أسلم من الآفات الصارفة
عن تمام السلوك فقد تقدم بياننا أن السالكين لطريق المحبة إنما هم أهل النفوس
١٨ القوية النظر ، الكاملة الطبع ، النافذة البصيرة ، وأما من يكون جبان النفس ضعيفا
فهو ينقطع في أول مراتب الكون وهو الجماد ، وربما سقط ، فإن طائفة أحبّوا
النار وهو جماد واعتقدوا كمالَها حتى عبدوها وهم طائفة المجوس ،
٢١ وآخرون عبدوا الحجارة وهم الهنود ومن قلّدهم في ذلك من الروم والعرب ،
وآخرون عبدوا الشجر وهم أيضا طائفة من الأعراب ، وآخرون عبدوا

٦ علم : في الأصل « علما »
١٧ فقد : في الأصل « وقد »

٨/١٠

الحيوانات البهيمية فلم ينفع هؤلاء لمّا قصر ادراكهم وضعف فهمهم شيءٌ ، وكلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلق له . والكامل من الناس من يصل إلى الحق تعالى من الطريق الأكمل، ولا أكمل من الاستدلال على الصانع بأكمل صناعته وهي الذات ٣ الانسانية، فليس في العالم أكمل منها وليس يضرّ كمالَ الشمس كونُها تمحق أنوارَ عيون الخفافيش . وقد ضلّ كثير من الناس من كتاب الله وفيه الهدى والنور وهو الحق المبين والصراط المستقيم ، فلم يقدح ذلك في كونه هدى ونورا ، ٦ قال الله تعالى: ﴿ يُضلّ به كثيرا ويهدي به كثيرا ﴾ (٢ «البقرة» ٢٦) . ﴿ ومن يهد الله فما له من مُضلّ. ﴾ (٣٩ « الزمر » ٣٧) . (من الطويل) :

ومن لم يكن للحقّ أهلا أضرّه   كإضرار نور الشمس للأعيُن الرُمْدِ ٩

(١٠/٨) **تنبيه** : فأما محبة صور الأجسام الجميلة مقرونة بقضاء شهوة الفرج لا لقصد فوق ذلك كما هو مشهور من محبّة حُثالة العامّة وأهل الغفلة والبطالة، فذلك وصفٌ خسيس وصاحبه قد صرف نفسه التي هي أمانة الله في ١٢ الانسان وبها سبب نجاته في الدار الآخرة ووصوله إلى جناب قرب ربه في عشق جسد مظلم لأجل قضاء شهوة خسيسة ركيكة لذّتها منقطعة ، وفوتها وشيك ، والألم عليها بعد الفراق باقٍ ، والحزن من أجلها دائم . ولو كانت ١٥ على خسّتها تدوم لصاحبها أبدا لكان فيها لذوي الهمم الدنيّة مقنع ، إذ سُكر النفس من خمر الهوى يُريها القبيح في صورة الحسن ، كما قيل (من البسيط) :

يَعْشَى على المرء في أيام محنته   حتى يرى حَسَنا ما ليس بالحسنِ ١٨

والمريض يكره طعوم الأشياء اللذيذة ، وربّما يستلذّ طعوم البشيعة منها لمرض الحسّ ، فكذلك النفس إذا كانت مريضة وضعف إدراكها لذلك

٤ الشمس : كذا في الهامش والذي في الصلب « النفس »
١٠ مقرونة : في الاصل « مقرونا »
١٤ منقطعة : في الأصل « منقلت » ولعله « منقلبة »

تأنس بالرذائل وتقنع بها ولا تتشوّق للفضائل . وشهواتُ الدنيا وإن لازمت
مُدّة الحياة إنما هي مثل أحلام النائم يلذّ بها ما دام نائما فإذا فارقها باليقظة
٣ تحسَّر على فوتها وتألّم لفراقها . (من البسيط) :

وزارَني طيفُ مَن أهوَى على حَذَرٍ من الوُشاةِ وداعي الصبح قد هَتَفا
فكدتُ أُوقِظُ مَن حولي به فرَحا وكاد يُهتِكُ سِتْرُ الحبّ بي شَغَفَا
٦ ثمّ انتبهتُ وآمالي تُخيّل لي نَيْلَ المُنَى واستحالت غبطتي أسفا

وأيضا فإن هذه الشهوات الحسيسة تحول في الدنيا بين العقل وبين درك
الحقائق، فإذا جاء الموت ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ (٣٤ «سبأ» ٥٤)،
٩ وقع الندم على الفائت عند كشف الغطاء ولم يمكن التدارك ، فحينئذ لا
ينفع الندم ولا يُغني الأسف ، فلا صاحبُ هذه الشهوات باقٍ مع لذّاته
ولا فاقدٌ للألم عليها ولا واصل إلى السعادة الأخروية ، وهذا غاية الشقاء —
١٢ نعوذ بالله منه . (من الكامل) :

ومن الشقاء وللشقاء علامةٌ ألاّ يُرَى بك عن هواك رجوعُ
والعبد عبد النفس في شهواتها والحُرُّ يشبعُ تارةً ويجوعُ

١٥ (١٠/٩) **فصل** : ولقائل أن يقول : لم أنكرت محبة صورة الأجسام
المعتدلة لذاتها وما فيها من الكمال الظاهر والجمال المقارن له الذي هو عبارة
عن حسن الصورة ؟ فإن النفوس تحبّ الأجسام لتناسُب أعضائها واعتدالها
١٨ وحسن تأليفها وبديع شكلها بالطبع ، وتنفر عن الصور المنكوسة والخِلَق
المشوّهة نفارا لا يدخل تحت اختيار ، وإذا كان حب الجمال الظاهر أمرا
غريزيّا في الانسان فكيف يمكن صرفُ النفس عنه وهو مع استحكامه
٢١ لا يُطاق ولا يُقدَر على الانخلاع عنه؟ فكيف تُصرَف النفس عنه <وكيف
يمكن> تعليقها بالجمال المجرّد؟ وذلك لا يمكن أن يُدرَك إلا بعد صفاء

النفس في الغاية وتجوهُرها بما يرد عليها من الأنوار القدسية ، وهذا عسير جدّا ، لأنّه ليس من كسب الانسان ، إذ النفس لا تُدرك بمجرّد ذاتها شيئا حتى يُمدّها الحقّ تعالى بنوره ، وإنما مَثَلُها في ذلك مَثَل العين التي هي آلة الإبصار لا يمكنها الإبصار حتى يتّصل بها نور الروح الحيواني المستمَدّ من القلب ، ثم لا تتبيّن لها الأشياء حتى يُشرق على تلك الأشياء نورُ الشمس فتظهر في نفسها فيُدركها إذ ذاك البصرُ ، كذلك النفس لا تُدرك الأمور الروحانية حتى يُمدّها العالمُ العلويّ بنوره فعند ذلك يتهيّأ لها أن تدرك ، ولا تظهر لها الحقائق حتى يُشرق عليها نور الحق القدسي الواجب لذاته ، وهذا أمرٌ لا يُتوصّل إليه إلا بالتأييد الإلهي ، وقد جاء في الأثر « إن الله جميل يحبّ الجمال » وجاء « إن النظر إلى الوجه الحسن عبادة » وغير ذلك من الآثار ، هذا الجمال فما المراد بذلك ؟

فاعلم أن الجمال ينقسم على وجه إلى ثلاثة أقسام : الأول وهو جمال صورة الأجسام الجميلة ونسميه عالم حسن الصورة والجمال الجزءي . الثاني الجمال المجرد عن الأجسام المعقول دونها إما بالذات وإما بتجريد العقل له من العوارض ونُسمّيه عالم صورة الحسن والجمال المجرّد . والثالث الجمال المطلق الواجب الوجود وهو الذي يستحقه الحق تعالى ولا ينبغي لأحدٍ سواه ، وهو الجمال القدسي ، والأسفل من هذا مستمَدٌ مما فوقه .

وأما الجمال الذي يظهر على الأجسام الجميلة المسمّى عالم حسن الصورة المفرّق على جميع المستحسنات اللائح على أعلى ديباج الخدود ، واعتدال قامات القدود ، وفترات الألحاظ ، وعذوبة الألفاظ ، وشنَب الثغور ، وهيَف الخصور ، ولين المعاطف ، وعقد السوالف ، الجاذب مفهومه لحبّات القلوب ، السالب معقوله لروحانية العقول ، فإنما ذلك كما قرّرناه أولا إشراق نور النفس على آفاق تلك الصفحات المعتدلة ، فهي في الحقيقة شرَكٌ له وحُجُبٌ دونه وظلٌ من ظلاله ، ولولا ذلك المعنى الذي حصل في هذه الأجسام لم

٩/١٠

تنجذب لها النفس على لطافتها حتّى تغيب عن ذاتها كما لا تنجذب بمجرّد
الأجسام إذا عدِمت روح الحياة ، وعدِمت بعدم الحياة إشراقَ نور هذا
٣ الجمال من عالم الحسن ، إذ النفس اللطيفة لا يجذبها إلا مناسبٌ لها مثلها
أو ألطف ولو من وراء حجاب ، ولا مناسبة بين اللطيف والكثيف .
(من الكامل) :

٦ ولقد أحنُّ إلى زَرودَ وطينتي — من غير ما جُبلت عليه زَرُودُ
ويُطرّبُ الشادي فــلا يهتزُّني — وينالُ منّي السّائقُ الغرّيدُ
ما ذاك إلا أنّ أقمار الحِمى — أفلاكهنّ ، إذا طلعن ، البِيدُ

٩ ولو فرضنا تعرّي الأجسام عن روح الجمال حتّى لا يفهم مع الجسم شيء
إلا كونه من اللحم والدم والعظم والجلد كجسم الميت لوجدنا النفس
تنفر عن ذلك بطبعها كما تنفر عن جسم الميت ولو كان محبوباً لها قبل الموت
١٢ ولكانت تتفطّن أن محبوبها ذلك المعنى الزائد على الجسمية الزائل عنها الآن،
ولقالت (من الطويل) :

إذا ارتحلت عن أرض نجدٍ أحبّتي — فلا سال واديها ولا اخضرّ عودُها

١٥ والنفس لا تحبّ مجرّد الجسم أصلا إذ لا مناسبة بينهما ، فإنما تجذبها
أوّلا روحٌ قريبة الشبه بها تُذكّرها بألفها معها محلّها الأوّل ، لكن النفس لا
تتنوّع ولا تكمل إلاّ بالجسم ، فتحبّه من أجل أنّه مطلع شمسها ، ومهبط أشعّة
١٨ نورها ، كما تُحَبُّ الدابّة لأنّها مركبٌ مُوصلٌ إلى المحبوب لا لذاتها ، وعلى

....

٦–٨ ولقد الأبيات : لمهيار الديلمي المتوفى سنة ٤٢٨ ، من قصيدة كتب بها إلى الوزير كمال الملك أبي المعالي. ديوانه الجزء الأول (بيروت ١٣١٤) ، ومعجم البلدان ٩٢٨/٢ (زرود).
[٦ جبلت : فطرت – الديوان]
١٨ لأنها : في الاصل « لأنه »

١٠/١٠

الانفراد لا تحبّ أصلا . وأما قولك : إن هذا لا يوصَل إليه بالكسب فنعم ، لا يوصل إلى شيء دقيق أو جليل إلا بالله وليس للانسان من ذاته إلا العدم ، فمن أراده الحقّ بشيء أوصله إليه ويسّره عليه . فقد ثبت من هذا أن الجمال الجزءي إنما هو من إشراق الجمال العلوي المجرّد، والجمال المجرّد من إشراق الجمال القدسي الواجب ، وأن التعليق بالجمال الأدنى سببٌ موصل إلى الأعلى على ما جرت به سُنّة الله : ﴿ ولن تجد لسنّة الله تبديلا ﴾ (٣٣ « الأحزاب »٦٢) .

(١٠/١٠) **فصل** : وأما أحوال المتعلّقين بالجمال فتختلف باختلاف متعلّقاتهم منه ، وهو ينقسم على وجهٍ آخر بحسب غرضنا إلى مطلق ومقيَّد ، فالمطلق ما ينفرد به الحقّ تعالى في ذاته، والمقيّد ينقسم إلى كلّي، وهو ما يعمّ سائر ذوات العالم علوا وسفلا، وجزءيّ وهو ما يخصّ بعض الذوات دون بعضٍ ويتميّز به كلّ ذاتٍ عن غيرها بالكمال والنقص . وكل واحدٍ من الكلي والجزءيّ ينقسم إلى ظاهر وباطن . فالباطن هو المجرّد عن الأجسام وهو ما يظهر على عالم النفس من أنوار الحقّ تعالى، والظاهر ما يتعلّق بالأجسام ويُدرَك محلّه بطريق الحواسّ، وهو ينقسم إلى ما يتعيّن له محلٌّ وإلى ما لا يتعين له محلّ . وجميع أصناف الجمال أنوار روحانية إلهية لكن بعضها أكمل من بعض وألطف . فالجمال الكلي روح الجمال الجزءيّ وسرُّه ، والجمال الباطن روح الجمال الظاهر وسرُّه ، والجمال المطلق القدسيّ روح الكل وسرّ الكلّ، فهو إذًا روح الروح وسرّ السرّ ، تعالى من انفرد به . (من الطويل) :

ألمّ بنا وصفٌ أجلُّ من الوصفِ   أدقُّ من المعنى وأخفى من اللطفِ
تُمازجُه الأرواحُ وهي لطيفة   إذاً هو روح الروح والروح كالطرفِ
نعِمنا به في أرغد العيش بُرهةً   ورا رتبة المعقول في عالم الكشفِ

١١/١٠

فواعجبًا من باطنٍ وهو ظاهرٌ ومن نازحٍ دانٍ ومن واضحٍ مُخفي
أأمنَعُ عن ذاك الحِمى وهو موطني أأبعَدُ عن جيرانه وهمُ إلفي
٣ سأُقدمُ إمّا مُنيتي أو منيّتي وأيسر شيء قد رضيتُ به حتفي

وأما اختلافه من حيث الدلالة فالجمال الظاهر دليل على الباطن ، والجزءيُّ دليل على الكلي ، والمقيَّد دليل على المطلق ، وكلها تشير إلى الجمال الأعلى .

٦ (١٠/١١) وأما المتعلقون بالجمال فهم ينقسمون إلى ثلاثة أصناف : **الصنف الأول** هم الذين بلغ بهم السلوك إلى محبة الجمال المجرّد وكمّلوا بعشقه ذواتهم ، فلما كملت توجّهوا بها لوجه الحق تعالى ، وهؤلاء هم الخصوص .
٩ **والثاني** الذين أحبّوا الجمال الظاهر المتعلق بالأجسام الجميلة إلا أنهم لم يقفوا فيه مع محلّ معيَّن بل تعشّقوا الجمال المبدّد على صفحات الذوات الجميلة ، وشاهدوه في جميع الصور المستحسنة ، ولا يفرّقون فيه بين الحيوان
١٢ والنبات ، بل يشهدون الجمال القائم بالكلّ ، إذ لكلّ موجود في العالم نصيب من الجمال الإلهي قلّ أو جلّ ، والعارف الكامل المعرفة يشارك جميع الموجودات بما جُمع فيه من الأسرار المفرّقة في العالم الكلّي ، وبذلك القدر
١٥ يناسب جميع الصور الروحانية المشرقة على الهياكل الجسمانية، فيقول (من البسيط) :

أصبحتُ ألطفَ من مرّ النسيم سَرَى على الرياض يكاد الوهم يؤلمني
١٨ من كلّ معنىً لطيفٍ أحتسي قدَحا وكلُّ ناطقةٍ في الكونِ تُطربُني

ولا شك أن الانسان كما ذكرناه اختصارُ كتاب الأكوان ، ونسخة العالم الأكبر بالبرهان، وهؤلاء دون الأولين في الرتبة، لعجزهم عن تجريد
٢١ الجمال ومشاهدتهم إيّاه في نفوسهم ثم في العالم الروحاني ، فإن مَن شاهدَ ذلك في نفسه ثم رأى نفسه أنها حقيقةٌ من حقائق العالم النوراني ثم غاب عنها

في مشاهدته كان نورا كليّا علويّا .

الصنف الثالث رهم العوامّ الذين لم يحبّوا الجمال إلا في محلّ مخصوص بصنفٍ أو بشخصٍ مّا ، فهوءلاء إن كانت محبتهم لهذا الجمال المعيّن بالأشخاص لمجرّد لذة الطبع خاصّةً دون أن يقارَن ذلك بشهوةٍ محرَّمة في الشرع فهو مباح ، وكذلك إن اعترضته فتركها تنزّها عنها أو مروّةً ، فإن تركها خوفَ مقام ربّه ، وجاهَد نفسه عليها خوفَ السقوط بارتكابها فهذا من المجاهدين ، فإن مات في جهاده ذلك مات شهيدا . قال عليه السلام : « من عشق فعفّ وكفّ ثم مات مات شهيدا » ، إلا أن هذا الصنف محجوبون عن الله تعالى بحظوظهم وعن العالم العلوي ، ولا يزول عنهم هذا الحجاب حتى يكون مطلوبهم الحقّ تعالى . وأما من أحبّ الجمال واعتقد أنّه غاية الطلب وأن لا شيء فوقه أكمل منه ولا أشرف ، وجحد ربَّ الجمال الذي الجمال خَلْقٌ من خلقه — كما يُحكى عن طائفةٍ من الكفّار — فهذا كافرٌ بالله عابدُ وثن . وإنما يُتصوّر أن يكون النظر إلى الجمال عبادة بشرطين : أحدهما القصد بالتعلّق به الوصول إلى خالقه ، إذ لا يُستدلّ على علم الصانع وقدرته إلا باتقان صنعته وإحكامها ، والثاني التعرّي عن الشهوات المخلّدة بصاحبها إلى عالم البهائم . (من الطويل) :

ألمْ ترَ أنّ البدر يوجد ضوءُه بصفوِ غديرٍ وهو في أفُق السما

وكيف لا يكون النظر إلى الجمال بهذا الاعتبار عبادة والناظر إليه مُطالعٌ لفاطره وواهبه ، ومستدلّ به على جماله الذي لا ينبغي إلا له ، إذ لا يُعطي الجمال إلا من هو أجمل منه ، ولا نسبة بين الجمالين كما لا نسبة بين المجاز والحقيقة والفعل والفاعل ، بل لا يُسمّى الجمال المُبدَع جمالا إلا من حيث النظر الى موجده ، وأما بالنظر إلى ذاته فهو مجاز محض ، والنظر إلى الواهب هو المقصود ، وهذا مُوصل إليه ودالٌّ عليه . (من البسيط) :

ما فتّحَ النَّوْرَ إلا ذلك النُّورُ فما انتظارُك والمنثورُ منثورُ

(١٠/١٢) ولهذا يوجد في المحبين لله تعالى من يغلب عليه سكر المحبة،
٣ وتظهر عليه صفة الأنس، فيعانق الجذرات، ويقبّل أصناف النبات وأنواع
الحيوانات، دون تفرقة بين الحسن والقبيح منها، لما يلوح له في هذه المصنوعات
من لطائف أسرار الصانع المحبوب، فيقول (من الطويل):

٦ ألا أيها الوادي الذي فاح طيبُه عسى لك عهدٌ من سُعاد قريبُ
وحُيّيتَ من وادٍ بكلّ تحيّةٍ لأنّك من أجل الحبيب حبيبُ

ومثل هذا نسلّم له حاله ولا نقتدي به.

٩ (١٠/١٣) والغالب على أولياء الله تعالى الحفظ عن مناهي الشرع، فلا
ينزلون إلا إلى ما هو مباح، فإن حركاتهم بالحق وعن الحقّ، لا عن باعث الطبع.
ولهذا قال بعض العلماء: إنّ من صحّ قصده في التوجّه إلى الحقّ ففعل ما
١٢ يفعله ذلك عبادة كاملة في حقّه، ما لم يخطر له تردُّدٌ في حين الشروع فيه،
إلا أنّا نشترط في ذلك موافقة الشرع المحمدي. فقد صحّ من جميع ما قلناه
أن محبة الله تعالى وقربه هو الغاية القصوى والسعادة العظمى، وأن محبة ما سواه
١٥ بقصد الوصول بها إليه من العبادات. قال عليه السلام: «اللهم ارزقني حبّك
وحبّ من يحبّك وحبّ من يقرّبني حبُّه إلى حبّك!». فقد سأل عليه السلام
محبة السبب الموصل إلى محبة ربّه تعالى، ولكن نشترط في محبة الأسباب
١٨ الموصلة ألا تُراد لذاتها بل لتكتسب النفس بها من اللطافة ما تصلح به أن
تكونَ آلةً مُوصلةً إلى الحضرة الإلهية، إذ لا يصل إلى ذلك الجناب إلا نفسٌ
صفت ورقّت. فإن كانت المحبّة بغير هذا القصد، بل مقصورة على حبّ
٢١ الأجسام الخسيسة، بقيت النفس مع من تعلّقت به وكان ذلك عين حظّها،
وحُجبت به عن الله تعالى أبدَ الآبدين، لأن ما سوى الحق حجاب عنه: ﴿فما

١٣/١٠

بعد الحقّ إلاالضلال ﴾ (١٠ « يونس » ٣٢) ، نعوذ بالله من الخذلان .

(من الطويل) :

إذا رمتُ من ليلى على البُعد نظرةً   لأُطفي جوًى بين الحشا والأضالعِ   ٣

يقولُ رجال الحيّ تطمع أن ترى   محاسنَ ليلى مُتْ بداءِ المطامعِ

وكيفَ ترى ليلى بعينٍ ترى بها   سواها وما طهّرتها بالمدامعِ

وتلتذّ منها بالحديث وقد جرى   حديثُ سواها في خروق المسامعِ   ٦

أجِلّكِ يا ليلى عن العين إنما   أراكِ بقلبٍ خاضعٍ لكِ خاشعِ

ولنختم الكتاب بأسئلةٍ واعتذارات لذوي العرفان من الاخوان .

فصل في خاتمة الكتاب

(١/١١) قال عليه السلام: « من عرف نفسه عرف ربّه » . فإن تشوقتَ
إلى معرفة حقيقة هذا الخبر فاعلم أنّه لا يصل إلى معرفة حقيقة نفسه إلا من
زكّاها، ولا تحصل تزكيتها إلا بالرياضة القلبية التامّة حتى تصفو وترقّ وتلطف،
فإنها حينئذٍ تُبصر ذاتها بشدّة صفائها ، فإذا صارت كذلك تجلّى لها نور
الحق المشرق على كل ذات صافيةٍ متوجهة لربّها، فعرفتْ بالنور المتجلّي لها
من جناب الحقّ ذاتَها وكونَها نسخة الوجود ، فتُشاهد في نفسها من بديع
الصنعة ، وغريب الحكمة ، ومواقع أسرار الجمال ، وفنون أوصاف الحكم
المبهج ، ما يحصل لها به الافتتان بما هي عليه من الكمال ، ثم يحدُث لها الشوق
إلى كمال إدراك حقيقتها فيصفّيها ذلك الشوق ، وكلما ازدادت صفاءً
ازدادت إدراكا واطلاعا وكشفا ، وكلما كثر إدراكها لاح لها الجمال الكلي
الذي هو أشرف المبدَعات وهو الذي يسمّى عالم الجمال، فتتعلق بعشقه فيرقى
بها إلى محبة واهب هذا الجمال ومُبدعه وفاطره الحقّ تعالى، الذي كل جمال في
العالم منه وُجد وبه قام ، إلا أن بعض السالكين لما كُشف له في سلوكه عن
جمال نفسه، ورأى ما لها في عالمها من بدائع الكمال، وما اشتملت عليه من
محاسن الإبداع ، اعتقد أنها ربّه . ولم يبلغ به التوفيق إلى رؤية بارئها فعبدها،
فكان حجاب هذا من ذاته ، نعوذ بالله من سوء القدر . فإن كل من أدركته
بك فهو مخلوق مثلك ، والحق تعالى لا يُدرَك بشيء سواه ، كما ورد في بعض
الكتب المنزّلة على بعض الأنبياء عليهم السلام : « كنتُ كنزًا لا أُعرَف
فأردتُ أن أُعرَف فخلقتُ خلقا وتحبّبتُ إليهم بالنِعَم حتى عرفوني فبي عرفوني ».

فلولا أنّه تعرّف إليهم لما عرفوه، ودلّهم عليه لما وصلوا إليه . (من الرمل) :

كبِرَتْ همّةُ عبدٍ طمعتْ في أن يراكا
أوَما حسبٌ لعينٍ أن ترى من قد رآكا ٣

(١١/٢) فقد صحّ من هذا أن معرفة النفس شرط في معرفة الله تعالى ، ولنعتبر في الدلالة على ذلك بمثال : وذلك أن الشمس محسوسة كلما قوي نورها، لا يتمكّن البصر من رؤيتها على الكمال دون واسطة، والنور ظهورٌ لها، ٦ فقد صارت شدّة ظهورها حجابا لها، وليس الحجاب على الحقيقة منها، فإن الظاهر لذاته لا يُحجَب من ذاته، وإنما الحجب عليه من غيره، والحجب هاهنا ضعف البصر عن مقاومة فيضان النور، ولكن يمكن النظر إليها بواسطة الأشياء ٩ الشفافة كالماء الصافي أو الصقيلة كالمرايا المجلوّة ، فإنّا إذا نظرنا فيها رأينا صورة الشمس بلا كلفة . فالحقّ سبحانه وتعالى محتجب عن خلقه بشدّة ظهوره، فلا يمكن رؤيته إلا بالوسائط، إلا أن تلك الوسائط لما كان لا وجود لها ١٢ من ذاتها، بل وجودها من الحق تعالى، كانت بالإضافة إلى ذاتها عدما محضا، فلا يُعرف الحق إلا بالحقّ . (من البسيط) :

لقد ظهرتَ فما تخفى على أحدٍ إلا على أكمَهٍ لا يعرف القمَرا ١٥
لكن بطنتَ بما أظهرتَ محتجبا وكيف يُعرَف مَن في عينه استترا

(١١/٣) **تنبيه** على معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن لله سبعين ألف حجابٍ من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى ١٨

....

٢–٣ كبرت البيتين : رسالة القشيري (١٣١٨) ١٨٦ (باب السماع) والأول فيها ص ١٦٥ (باب أحوالهم عند الخروج من الدنيا) ، واللمع للسراج ٢١٠

٧ صارت : في الاصل « صار »

١٥–١٦ لقد البيتين : إحياء علوم الدين (١٣٣٤) ٤/٢٧٧ (بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى) بغير عزو [١٦ في عينه استترا : بالعرف قد سترا]

٣/١١

إليه بصره . » أما الحجب فقد ثبت بالبراهين أن الحق تعالى لا يستره حجاب وإنما الذي حجبه عن خلقه شدة ظهوره وعجزُ الخلق عن رؤيته لقوة نوره .

٣ والحجب لا تكون إلا في حق الأجسام، وهي هاهنا في حق السالكين وهي كثيرة . واختلفت طرق الحديث في تعدادها . أما الظلمانية منها فهي حجب الشكوك وشبهات الاعتقاد والجهالات والغفلة والاعراض والفتور عن واجب

٦ الخدمة وما أشبه ذلك . وأما النورية فهي الوقوف مع الكمالات وصفو المعاملات وحيازة المقامات وصفاء الأحوال ، لأن من وقف مع مقام أو حال فقد امتنع عن النفوذ في السلوك . وبالجملة فما سوى الحق حجابٌ عنه عند

٩ ملاحظة ذلك السوى والوقوف معه ، ومن جملتها ملاحظة السالك ذاته فإن رؤيتها حجابٌ عن الله تعالى . وقوله: «أحرقتْ سُبُحات وجهه» يعني بالسبحات أنوار تجلّيه المنسوبة للجلال، فإنها تُحرق جميع الموجودات أي

١٢ تُعدمها كالنار إذا استولت على شيء فإنها تُذهب صورته إن كان مما يقبل الاحتراق ، وكذلك الشمس إذا قابلتْ مرآةً صقيلة أحرق شعاعها ما كان بينهما من الأجسام القابلة للاحتراق . (من الطويل) :

١٥ إذا قابل المرآةَ للشمس رونقٌ تولّد فيما بينهنّ لهيبُ

فقد تبين مما قلناه أن الحق سبحانه إذا تجلّى لشيء دون حجاب مَحَقَ ذاته ، كما يُذهب نور الشمس أنوار الكواكب ، وكيف يقابل الواجب

١٨ وجوده محض العدم ؟ وهذه أطوار جليلة ومنازلات شريفة لا يُتوصّل إلى تفصيل حقائقها إلا بالذوق ، فمن ذاق عرف . فالعارفون ينظرون إلى جمال الصنعة الإلهية فيتوصلون به إلى صورة الجمال المجرّد، ثم منه إلى عالم الجمال الكلي

٢١ ثم إلى جمال الواهب للكلّ الذي كل جمال في العالم مستفاد منه بالغيبة عن أنفسهم في مشاهدته حتى لا يبقى فيهم منهم شيء ، أولئك الذين اختارهم

٤ واختلفت : في الأصل « واختلف »
١٥ فيما : في الأصل « فيها »

الحق تعالى واصطفاهم واختصّهم بمعرفته ومحبته ، ومن عدم هذا الذوق وحُرم هذا الحظّ فهو المغبون على الحقيقة . (من الطويل) :

خضعتُ ذليلا حين عزّت مطالبي وآنستُ رُشدا بين تلك المضاربِ ٣
ولي أرَبٌ بالجزْعِ إن لم أُقضّهِ سأقضي وما قضّيتُ منه مآربي

فما ظنّك يا أخي — أيّدنا الله وإياك بروح منه وأنالنا توفيقا من لدنه — بمن وصل إلى هذه الحال ، وشرب من هذا المنهل الزُلال ، واتصف بهذا ٦ الوصف الجميل ، وبلغ ذروة هذا المقام الجليل ، من الأولياء وخاصّة الأصفياء ، الذين اختارهم الحق تعالى فأمدّهم بعونه ، وأخفاهم تحت حجاب صونه . فما يعرفهم سواه ، ولا يعرفون موجودا حاشاه . (من الطويل) : ٩

بدتْ لك ليلى من وراء حجالها سُحيرا وأبدتْ بارقا من دلالهـا
فطِبتَ بها عَيشا وتِهتَ لَذاذةً وبَوّأكَ الإلمـاعُ بردَ ظلالهـا
فكيف بها إن أسفرَتْ عن نقابها ضَحاءً وأبدت لمحةً من جمالها ١٢
وكيف بها إن لم يغب عنك وجهُها ولم تخلُ وقتا من منال وصالها
وكيف يكون الأمر إن أنتَ كنتَها وكانتْكَ تحقيقا فحُلتَ لحالها

فهذه طريق السلوك بالمحبة إلى الجناب الأعلى وكيفية الوصول بها إلى ١٥ حضرة قدس الولاء .

وهناك طرقٌ كثيرة متعدّدة غير هذه من طرق أهل الرياضة ، إلا أنها بعيدة جدّا وهي مع بُعدها كثيرة الآفات والقواطع ، وقلّ ما تصفو الأعمال ١٨ فيها من الشوائب والموانع ، لكنها خُلقت لأصناف من الخلق قد يُسّروا لها ويُسّرَت لهم ، لا يصلح بهم سواها ، على أنهم يتفاوتون فيها على حسب تفاوتها في القرب والبعد ، وذلك بقدر ما خلق الله تعالى فيهم من القبول ٢١

والاستعداد وكلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلق له وسالكٌ ما نُهِّج له . (من البسيط) :

الطُّرْقُ شتّى وطُرْقُ الحقّ مفردةٌ والسالكونَ طريقَ الحقّ أفرادُ

٣ ولا شك أن هذه الطريق التي تقدم لنا بيانها هي طريق الأفراد المشار إليهم، إذ هي في غاية القرب بحيث يمكن الوصول بها في نفَس واحد ، فإنّ الآلات المستعملة فيها والوسائط الموصلة إليها أمورٌ روحانية لطيفة جداً شديدةُ

٦ النفوذ والقوّة والقهر والاستيلاء ، فهي طريق الخواصّ بل خاصّ الخاصّ ، وسوف — إن يسّر الله تعالى السبيل وفسح في المدة وصرف الموانع — نبيّن هذه الطرق المذكورة من حيث أجناسها من غير حصر لأعيانها إذ « الطرق إلى

٩ الله تعالى على عدد أنفاس الخلائق كثرةً ». ثم نذكر في كل جنس منها من الكلام ما يحصل به المقصود الاقناعي بعد أن نصِف ما يليق بكلّ جنس منها من أصناف الخلق وما يُشترط في كل فنّ من ذلك من الشروط المصححة

١٢ والمكمّلة . ونحنُ بعد هذا نرغب إلى أهل الفتوّة الكاملة والشيم الكريمة الفاضلة من أهل الطريق ، السابقين إلى رُتَب أهل التحقيق، الموصوفين بالحرية، والمنعوتين بالخلق الرضيّة ، في الاغضاء عما عرض في هذا الكتاب من خطإٍ

١٥ ووهم أو إخلالٍ بمعنى دقيق لم يسنح للفهم ، فالخطأ معلوم من سجية البشر إلا أنّه يُغتفر ، لمن تنصّل واعتذر ؛ فسلوك هذا المسلك العزيز الوجود متوعّرٌ على العقول البشريّة، متعذّرٌ على أكثر الأفهام الآدمية، لصعوبة مرامه وتطلّبه

١٨ وكثرة فنونه وتشعّبه ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ (٢٤ « النور» ٤٦) النور(٢٤« النور » ٤٦)، رزَقَنا الله وإياكم التعلّق بأنواره ، وكشف لقلوبنا عن لطائف أسراره ، إنّه وليّ كلّ إحسان ، وواهب كل

٢١ امتنان .

تم والحمد لله رب العالمين في يوم الثلاثاء سابع عشر
شهر ذي القعـــدة من سنة ست وثمانمائة
اللهم اغفر لكاتبه ولأمة محمد أجمعين .
وصلى الله على نبيه سيدنا
محمـــد وآلـــه وصحبه
وسلم .

قوبل على أصلها المنقول منه جهد الطاقة والحمد لله تعالى

فهرس الشعر

ء

ب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ت

ج

ح

د

ر

س

ع

ف

ق

ك

ل

فهرس الأشخاص

فهرس الأماكن



الفهرس





Kitāb Maŝārik Anwār el-Kulūb

wa Mafātiḥ Asrār el Guyūb

by

A'bd el-Raḥmān b. Muḥammad el-Anṣārī

ed.

H. Ritter

Dar SADER, Publishers
BEYROUTH







